وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

سماحة آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

الرَّسُولُ الدّاعِيَة
في
القرآن الكريم



إصدار المركز الإسلامي الثقافي

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

سماحة آية الله العظمى
السيد محمد حسين فضل الله (دام ظله)

الرَّسُولُ الدَّاعِيَة في القرآن الكريم

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

المقدّمة

إنّه حديث العقل عن الحبيب المصطفى(ص)، حديثٌ يستحضرُ فيه سماحة السيّد (دام ظلّه) عميق المعاني فيما هي تبيانٌ لدور النبوّة ولمسؤوليّاتها، وإبرازٌ لعظمة رسول اللّه(ص) في سيرته ومنهجه وعظيم أخلاقه.. إنّه استيحاءاتٌ من القرآن الكريم فيما حدّثنا الله تعالى عن نبيّه(ص) في شخصيّته الرساليّة بكلِّ صفائِها ونقائِها لِما تمثّله هذه الشخصية النبويّة من رساليّة المضمون والممارسة..

ويسرُّنا في المركز الإسلامي الثقافي أن ننشر هذا البحث وفي ذكرى ولادة رسول الله(ص) ليكون زاداً فكريّاً تستفيد منه أجيال الأمّة في حاضرها ومستقبلها.

والله الموفق

شفيق محمد الموسوي
ربيع الأول ١٤٢٨هـ
آذار ٢٠٠٧م

الهدف من دراسة تاريخ الدعوة

ليس الهدف من دراستنا لتاريخ الدعوة هو الرَّغبة في تحليل شخصيّات تلك الفترة المشرقة من تاريخنا الإسلامي من زاوية مجرّدة كما جرت عليه العادة في دراسة الكثيرين للتاريخ الذي لا يرتبطون به رساليّاً كجزءٍ من دراسةٍ منهجيّةٍ مقرّرة، لأنَّ عملية الرجوع إلى التاريخ تُمثّل جهداً فكريّاً وعمليّاً كبيراً لا يتناسب مع أساليب الترف الثقافي، باعتبار أنَّ الدراسة ترتبط بالخطّ العملي لحياتنا المستقبليّة لجهة كونه تاريخَ حياة لا تاريخ مرحلة.. لذلك يجب أن نتلمّس في خطوات هذه الدِّراسات الملامح الأصيلة لفكرة الدعوة الإسلامية وأساليبها العملية أولاً، والطبيعة الذاتيّة لشخصيّة الرسالة من خلال شخصيّة الرسول ثانياً، والأجواء الروحيّة والنفسيّة التي تعيش في داخل الداعية أمام التحدّيات التي تواجهه أو الصعوبات التي تعترضه، أو الأزمات التي تلاحقه ثالثاً.

وبذلك يمكننا تصحيح المسار في كثير من وسائلنا وخططنا العملية، التي نَلْمَح في بعض جوانبها قوّة دفعٍ للحاضر في اتجاه المستقبل، ولا سيّما عندما تكون الدراسة للشخصيّة النبويّة في

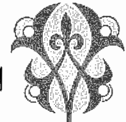
ملامحها الذاتيّة من الداخل، وفي ملامحها الرساليّة من الخارج، وفي الخطوط العريضة لحركتها في الحياة المرتبطة بالرسالة..



المصدر الأصيل لدراسة الدعوة

أمّا فيما يخصُّ المصدر الأصيل الذي يجب اعتماده، فثمّة من ذهب إلى اعتماد القرآن، وآخرون ذهبوا إلى اعتماد كتب السيرة منفردةً، وإلى جانب القرآن تارة أخرى. وممّا لا شكّ فيه، أنّه لا بُدَّ في دراستنا لتاريخ الدعوة الإسلامية من الرجوع إلى القرآن الكريم كوثيقة أساسيّة ثابتة، باعتباره الكتابَ الإلهيّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنَّ اللّه تكفّل بحفظه من التحريف والزيادة والنقصان، وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لحَافِظُون**﴾(الحجر:٩)، كما أنَّ الكتاب المجيد يُعتبر تاريخاً حيّاً للرسالة والرسول(ص)، باعتبار أنَّه انطلق في أكثر آياته من حاجة الرسالة العمليّة إلى التوجيه والتركيز والتثبيت الداخلي لروحيّة العاملين لكي لا تنهار معنوياتهم ليتمكّنوا من الثبات، ومن ناحية أخرى، انطلق من حاجة الرسالة العملية، فَوَضع التصوّرات والحلول للمشاكل الصعبة التي كانت تعترض المجتمع الإسلامي.

وهذا ما نستوحيه من قوله تعالى، في حديثه عن بعض أهداف



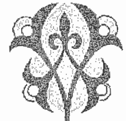
القصص القرآني الذي يتحدّث عن النبيّين وعن تاريخ النبوّات: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(هود: ١٢٠). ومن قوله تعالى، في حديثه عن السرّ في نزول القرآن على دفعات متفرِّقة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾(الفرقان: ٣٢ - ٣٣).

أمّا كتب السيرة، فإنَّنا لا نجد الوثاقة المطلقة، ولا الصورة الكاملة التي تنقل لنا الأجواء العامة للدعوة بصدقٍ وأمانة، لأنّها كانت عرضةً للتيارات المتنوّعة التي فرضت نفسها على التاريخ الإسلامي، وللجوانب الذاتيّة التي تطبع شخصيّة المؤرّخ والمُحدِّث، الأمر الذي يفرض على الباحث أن يأخذ جانب الحيطة والحذر، وهذا ما يُشعره بالحاجة إلى التوقف كثيراً عند كثير من مضامين الأحاديث وأسانيدها، فإذا أحرز الصدق في الكلمة من بعض الرواة، فإنّه لا يُحرز - تماماً - الشمول في النظرة والسلامة في التقييم، لاعتبارات شتّى؛ إمّا لأنّه قد يهتمّ ببعض جوانب التاريخ ويُهمل البعض الآخر، أو لأنّه قد لا يجد في هذا مصدر أهميّة في تصوير العظمة الذاتية للشخص أو للموقف، أو لأنّه لا يملك النفاذ إلى أعماق الأمور، أو الامتداد إلى جميع آفاقها الرحبة الواسعة، ما يجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحيّة.

وقد يواجهنا - في هذا الاتجاه - بعض المؤرِّخين الذين يهتمون

بالحديث عن القضايا التي تدخل في نطاق الغيب، فيلجأون إلى تفسير بعض الوقائع والقضايا والظواهر بمختلف أنواعها من خلال أحاديث الكرامات والارتباطات المتنوّعة بالمخلوقات الخفيّة من الجنّ والملائكة، ويُغفلون - في الوقت نفسه - الحديث عن الجوانب الموضوعية المحيطة بالموقف، ما يخلق أمامنا الكثير من الاهتزاز في الصورة، ويُبعدنا عن التصوّر الطبيعي للقضية، الأمر الذي يمهّد للتاريخ أن يقع في قبضة الغيبيّات المُطلقة، لأنَّ قضيّة الإيمان بالغيب الذي هو من العناصر الأساسيّة في تفكيرنا الديني، لا تعني اعتباره تفسيراً شاملاً لكلّ الظواهر الاجتماعيّة والعسكريّة والسياسيّة، بل تعني اعتباره حقيقةً قائمة في خلق اللّه كمبدأ أصيل في مقابل القائلين باستبعاده نهائيّاً من حركة الحياة. ومن خلال ذلك، كان الاتجاه القرآني يؤكّد على استبعاد الصفة الغيبيّة لممارسات النبيّ(ص)، سواء في طاقاته الفكريّة أو الجسديّة، والاكتفاء بالتركيز على الوحي كعنصر يزوّد النبيّ بما يريد اللّه أن يبلّغه للآخرين، أو يعلّمه في نفسه في ما تحتاجه الرسالة في مواقف الدعوة وفي خطوات القيادة.

وقد شارك هذا الاتجاهُ بتأصيلِ جانبِ القدوةِ والأُسوة بالنبيّ(ص)، باعتبار أنّ خطواته سائرة في صعيد الواقع الذي يمكن لأيّ إنسان مسلم أن يحتذيه ويمارسه، لا في صعيد الغيب والأسرار الخفيّة المختصّة بالنبيّ ممّا لا يمكن للآخرين أن يفهموه أو يمارسوه.



وقد يكون من ملامح هذا الاتجاه ما نجده في تصوير القرآن الكريم للأحداث التي عاشها الإنسان في أزمنة النبوّات الأولى، وتحليله لها من خلال الخطوات المستقيمة أو المنحرفة، واعتبارها درساً يمكننا أن نتفهّمه لنستفيد منه في ما نستقبله من أعمال وفي ما نواجهه من أحداث.

وإنّنا إذ نقرِّر ذلك؛ لا ندعو إلى إهمال كتب السيرة واستبعادها عن دائرة البحث والدراسة للتاريخ الإسلامي، لأنّها تساعد في كثير من الحالات بل في أكثرها، على توضيح التفاصيل الدقيقة لبعض الصور والأحداث، ولكن كلّ ما نريد تقريره هو اعتبار القرآن أساساً للتصوّر الإسلامي للقضايا التي تحدّث عنها، بحيث تكون الأجواء القرآنية هي المصدر الأساس في طبيعة القضايا من حيث ملامحها العامة والخاصة، ففي الوقت الذي تثير فيه السيرة أمامنا الكثير من التفاصيل، نلتفت إلى القرآن لنفهم من خلال ما توحيه الكلمةُ القرآنيةُ من عمقٍ وشمولٍ وامتدادِ الأجواءَ الروحيّة الداخليّة والخارجيّة للأحداث. كما أنَّ هناك فَرْقاً كبيراً بين أن ينقل اللّه لنا أجواء الفكرة أو القصة، وبين أن يحدّثنا عنها كتّاب السيرة مهما كانت منزلتهم.



الأهداف العامّة للنبوّات

ومن أجل استيحاء الملامح الأصيلة لشخصيّته(ص) ولأسلوبه العمليّ في الدعوة إلى اللّه، نحاول في هذا المجال القيام بدراسة قرآنية جادّة حول موضوع الرسول الداعية، وهذا ما يستدعي منّا قبل الولوج في البحث، أن ندرس أهداف الرسالة العامة للنبوّات التي حدّدها القرآن الكريم في أكثر من آية، لأنَّ ذلك هو الذي يفسّر لنا الكثير من أسرار الشخصيّة النبويّة في مواقفها وأساليبها.

١ ـ ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيه**﴾(البقرة:٢١٣).

٢ ـ ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيماً**﴾(النّساء:١٠٥).

٣ ـ ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّه نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِين * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَع رِضْوانَهُ سُبُلَ السلامِ ويُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِم إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم**﴾(المائدة:١٥ ـ ١٦).

٤ ـ ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤْمِنِين إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ**

أنْفُسِهِم يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعلِّمُهُم الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(آل عمران:١٦٤).

٥ - **﴿لَقَدْ أرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾**(الحديد:٢٥).

٦ - **﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم في التَّورَاةِ والإنجِيل يأمرُهُم بِالمَعرُوفِ وَيَنْهَاهُم عَنِ المُنْكرِ وُيحِلُّ لَهُم الطيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُم إصْرَهُمْ وَالأغْلالَ التي كَانَت عَلَيْهِم﴾**(الأعراف:١٥٧).

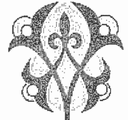
وممّا يُلاحَظ في هذه الآيات، أنَّ أهداف النبوّة تشمل الحياة كلّها وتستهدف تغيير معالمها باتجاه النهج القويم إلى درجةٍ يشعر معها الإنسان بالنور المتدفّق من كلّ مكان يتحدَّى كلَّ غياهب الظلمات، وبتعبيرٍ آخر، ليعيش روحيّة الإسلام بأنواره، من خلال تشريعه العملي الذي يركّز خطوات السلام على أرضٍ طاهرةٍ صُلْبة، ومن خلال تزكيته لضميرِ الإنسان وفكرِه وحياتِه من أجل صنعِ شخصيّة الإنسان الزكيّة الطاهرة التي تتحرّك في الحياة ليعيش الانفتاحَ على اللّه في لُطفه وعفوه ورضوانه، والانطلاق مع تعاليمه الممتدّة في آفاق الإنسان الرحبة، المرتكزةِ على أساسٍ من الواقعيّة والحكمة في الحركة والأسلوب.

وفي واقع الحياة الاجتماعية، بكلّ ما فيها من خلافاتٍ ومنازعاتٍ في معركة القوّة والضعف، والخير والشر، والعدل والظلم، والحقّ والباطل، ينطلقُ الإسلامُ ليشرّع لها التشريعات

التي تركّز الحياة على قاعدة متينةٍ لا مجال فيها للسلبيّات، باعتبار أنَّ حركة الدعوة تنطلق في الأساس من موقع القوّة العادلة الحكيمة التي تضع الميزانَ الذي يحكُمُ بين النّاس بالقِسط في ساحة القضاء، وفي حركة المجتمع، وفي مجالات السلم والحرب.

قد يعتقد البعضُ بأنَّ الأساس في دعوة الأنبياء، هو أن تعطي روحيّةً حالمةً تحلم بالحبّ والصفاء والسَّلام في أجواء مثاليّة تعيش في إطار الوصايا الهادئة والنصائح الخجولة والحِكَم الوقورة التي يُحلِّق معها الإنسان بجناحين من الصوفيّة الغارقة في أمواج الضباب، ولكنَّها في الحقيقة تمثّل القوّةَ التي تتعامل مع الواقع بحكمةِ فهمِها الموضوعي له، وتواجه مشاكلَه بصبرٍ في وعيها المنفتح على طبيعته، وتنطلق في إصلاحه من خطّةٍ شاملةٍ لا تحبس الإنسان في القمقم، ولا تُطلقه في الخيال، ولا تنعزل به في جانب محدود من جوانب حياته، إنَّما تتحرّك به في كلّ المؤثّرات التي تخضع لها حياته، وبذلك يتحقّق لها هدفُ تحطيم الأغلال التي كانت عليه.





حركية الرسالة بين خطّي الدعوة والعمل

أ ـ الرسالة في خطّ الدعوة

ومن هذا المنطلق تتحرّك الرسالةُ في شخصيّة الرسول(ص) وخطواته في اتجاهين يخضعان لطبيعة الحركة ونوعيّة المرحلة، ففي حركة الرسالة في خطّ الدعوة، تتحرّك الخطوات هادئةً ليّنةً تختزن الحنان والمحبّة في الكلمة والأسلوب، حيث يختلطُ في هذا الجوّ الفكرُ بالعاطفة ويمتزجُ الإيمانُ بالشعور.

ويواجه الإنسان الرّسالي من موقع الصبر الذي ينطلق من خطّةٍ للثبات من أجل التقدّم، لا الاستسلام شتّى صنوف الاضطهاد والعذاب والمعاناة، لأنَّ قضيّة الانفتاح على اللَّه وعلى الحقّ المنطلق من وحيه، وطبيعة التحرّك من غياهب الظلمات إلى مشارق النور، تحتاج إلى جهدٍ كبير، ومرونةٍ عظيمة، باعتبار أنَّ التعامل مع الواقع الداخلي للإنسان لا يتجمّد عند حدودٍ معيّنة وقوالب جاهزة، بل يتحرّك مع طبيعة الإنسان المتجدّدة والمتحرّكة التي تتغيّر أمام عوامل التغيير الذاتيّة والخارجيّة. ولهذا يحتاج الإنسان إلى عقليّة ذكيّة ترصد رياح التغيير قبل أن تهبَّ للعمل من

أجل مواجهتها بالكلمة والحركة والأسلوب، لتتمكّن من تحويل مسارها إلى اتجاهات أخرى في خطّ الإيجابيّات بعيداً عن خطّ السلبيّات.

وفي هذا الجوّ، رأينا الآيات الكريمة التي تتحدّث عن الصفة الرساليّة للنبيّ، مكتفيةً بالتذكير والإنذار والتبشير، بعيداً عن السيطرة والإكراه، ومُطلقةً الكلمة الحقّة ليُمارسَ الإنسانُ أمامها حريّةَ الإيمان والكفر بعيداً عن الضغوط الخارجيّة. وترفع شعار ﴿**لا إكْرَاهَ فِي الدِّين**﴾(البقرة:٢٥٦) باعتباره الشعارَ الذي يعيش في نطاقِ وضوحِ الحقِّ وتميُّزِه عن الباطل وتبنّي الرشد في مواجهة الغيّ.

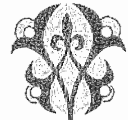
﴿**... إنْ أنَا إلاَّ نَذيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون**﴾(الأعراف:١٨٨).

﴿**قُلْ يا أيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنِ اهْتَدَى فإنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِه وَمَنْ ضَلَّ فإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أنَا عَلَيْكُم بِوَكِيل * واتَّبِعْ مَا يُوحَى إليْكَ واصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين**﴾(يونس:١٠٨ـ١٠٩).

﴿**وإنْ تَوَلَّوْا فَإنَّمَا عَلَيْكَ البَلاغُ**﴾(آل عمران:٢٠).

﴿**إنْ أنْتَ إلاَّ نَذِيرٌ * إنَّا أرْسَلْنَاكَ بِالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً**﴾(فاطر:٢٣ـ٢٤).

﴿**قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعَاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إنْ أتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحَى إليَّ وَمَا أنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبِين**﴾(الأحقاف:٩).



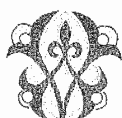
﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾(الغاشية: ٢١ ـ ٢٢).

﴿وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُم فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(الكهف: ٢٩).

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾(البقرة: ٢٥٦).

تؤكِّد هذه الآياتُ من خلال أساليب الترغيب والترهيب الواردة فيها على الجانب الرسالي المتمثّل بالدعوة إلى اللّه، جاعلةً من الإيمان ـ من حيث هو قناعةٌ وعقيدة ـ المُرْتَكَزَ الأساسَ لبلوغ عمليّة الانسجام مع كلمات الرسالة، ولكن من خلال حصول عملية تأمّل وتفكير، حيث لا سيطرة على الداخل ولا إكراه، لأنَّ ذلك بعيدٌ عن مجال الإيمان وحركته في داخل الذات.

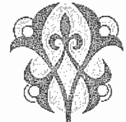
ومن خلال ذلك نفهم أسلوب الدعوة في المرحلة الإسلاميّة الأولى في مكة، حيث كانت تستدعي إيجادَ الأجواء الطبيعيّة الملائمة لدخول الإسلام إلى كلّ قلب من خلال إثارة مفاهيمه في المجتمع بين المؤيّدين المؤمنين به، وبين الرافضين له الكافرين به، الأمر الذي أدّى إلى حصول صراع عنيف، بين الأطراف المتنوّعة، وأدّى إلى حالات كثيرة من العذاب والاضطهاد والاستشهاد، ما أعطى الأفكار قوّة دَفْعٍ جديدة نفذت إلى أعماق الحياة، وامتدّت دعوةُ الإسلام حتى وصلت إلى مختلف أنحاء الجزيرة العربية، ما جعل منها الحدث الكبير لدى المجتمع كلّه، وأدّى ذلك إلى انفتاح الوجدان العربي على الإسلام، حتى إذا ارتفعت الحواجز النفسيّة



والماديّة التي أقامها المشركون أمامه، بدأ النّاس يدخلون في دين اللّه أفواجاً.

إنّ الأسلوب الإسلامي في الدعوة استطاع أن يُعطي الإنسان الصورة الحيّة للعقيدة في الإطارين الروحيّ والفكريّ، ويُبعدها عن الدخول في متاهات الخلافات التي تؤجّجها الحروب، حيث انطلقت تلك الفترةُ لتجسّدَ الدينَ الذي يحاربه المشركون، بدلاً من أن تكون الصورة هي صورة الجماعات التي تُحاربها جماعات أخرى، ممّا يُسبِّبُ بضياع الفكرة الأصيلة في الأجواء المحمومة الحادّة كما يَحْدُث في أيّة حرب بين فريقين.. وهذا هو الأسلوب الأمثل في أيّ دعوة هادفة تُريد أن تَفْرِضَ نفسها على الفكر والوجدان قبل أن تخوض الصراع في حركة الحياة الهائجة.

وقد كانت شخصيّة النبيّ محمّد(ص) منسجمةً مع هذا الخطّ العريض للأسلوب السلميّ للدعوة، حيث عاش الروحَ المنفتحةَ على آلام النّاس ومشاكِلهم، والمتفهّمةَ من جانب آخر لطبيعة التمرّد المتمثّل في مواقفهم السلبيّة من الإيمان باللّه الواحد، فعملت على خلق الأجواء النفسيّة والفكريّة التي تفتح لهم النوافذ المغلقة، ليكتشفوا ـ ولو بعد حين ـ النورَ القادمَ من وحي اللّه.. وبعبارة أوضح، لم يتعقّد من اضطهادهم له ولم يحقد عليهم ولم يتراجع عن خطّه قيدَ شعرة، بل ازداد قوّة وعزيمةً وإقداماً على مواصلة الرسالة من خلال الروح النابضة بالمحبة للنّاس التي تلتقي مع إخلاصه لرسالته.. وهذا هو ما نتمثّله في هاتين الآيتين الكريمتين:



﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ..﴾(آل عمران:١٥٩).

﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:١٢٨).

وقد يكون من بديهيّات أيّة حركة رساليّة أن يعيش القائمون عليها والدّاعون إليها روحيّة فكرها وأسلوبها، لأنَّ ذلك هو السبيل الأقوم لانسجام خطواتها العمليّة مع خطوطها الروحيّة والفكريّة، والطريقة الفضلى لإعطاء الصورة الحيّة من خلال الرّجل ـ الرسالة في أفكاره وأعماله.. إنَّ ذلك هو الذي يجعل البطل يتحرّك في ساحة الصراع من موقع البطولة.. ولا يترك المجال للممثّلين الذين يأخذون لأنفسهم دورَ البطولة دون أن يعيشوه. تلك هي حركة الرسالة في خطّ الدعوة.

ب ـ الرسالة في خطّ العمل

أمّا حركتها في خطّ العمل، حيث تنتصب أمامها التحدّيات والعقبات في المضمون العملي للواقع، ساعتئذٍ لا مناص من اعتماد أسلوب آخر يستمدُّ خطوطه من قلب الواقع ويستخدم فيه أسلحة الصراع، لأنَّ القضيّة ـ حينئذ ـ ليست قضيّة فكر جديد يُراد إقناع الآخرين به، بل قضيّة حياةٍ يُراد حمايتها من عدوان الآخرين، وقضية رسالة يريد الكافرون أن يعطّلوا دورها في حريّة الحركة.. وبالتالي هي قضيّة الإنسان الذي يتطلّع إلى قوّةٍ مؤمنةٍ تحميه من ظلم أخيه الإنسان، ويُجابه ـ لمصلحته ـ قوى الشر والطغيان.. لأنَّ

أيّ فكر لا يملك القوّة لتنفيذه لا يستطيع أن يُفسح المجال لنفسه بالحياة مع الأفكار الأخرى التي تحميها القوّة الطاغية.

وفي هذا الإطار يتحرّك الإسلام في أكثر من اتجاه ليشرّع القتال كأساسٍ عملي من أُسُس صُنْع القوّة في اتجاه تحقيق الأهداف الكبيرة التي يريدها للحياة، ولِيَدفع بالتربية الإسلامية إلى صنع الشخصيّة المجاهدة التي تعتبر القتال في سبيل اللّه فريضة إسلاميّة تُمارسها بخشوع وإخلاص كما تُمارس العبادة، من دون أن تستسلم للانفعالات العاطفية أمام الحالات التي تُنتجها عمليةُ القوّة.. وبذلك تتكامل الشخصيّة الإسلاميّة في لقاءٍ حميم بين أسلوب الدعوة وأسلوب الدولة، على أساس تحقيق رضا اللّه، في الإيمان على أساس القناعة، وفي الالتزام على أساس الإيمان المرتكز على القوّة.. وفي هذا الإطار، يتحرّك الإنسان المسلم في شعور الرحمة الذي يطبع علاقاته بالمؤمنين، وفي ممارسة الشدّة التي تحكم مواجهته لطغيان الكافرين.. وهذا هو ما عبّر عنه اللّه في حديثه عن النبيّ والمسلمين.. ﴿**مُحمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً**﴾(الفتح:٢٩).. ولعلّ في الفقرة الأخيرة إيحاءاً بالتقاء الصِفَتين على أساس القاعدة الإسلامية التي تحكم مشاعر الإنسان المسلم وتصرّفاته.



انّجاهات سلبيّة

وعلى ضوء ذلك، نفهم خلفيّات أسلوب النبيّ(ص)، سواء في حركته مع المسلمين أو مع تلك الوفود التي قَدِمتْ لمحاورته، وكذلك في ما يتعلّق بأسلوبه في مرحلة الجهاد، حيث نجد في حياته شخصيّة رجل الدعوة منسجمةً مع شخصيّة رجل الدولة، باعتبار أنَّ الدعوة خطوةٌ منفتحة على الحياة والإنسان في الطريق إلى الدولة.. وبتعبير آخر، لا توجد شخصيّتان مزدوجتان، بل شخصية واحدة تتوزّع فيها الجوانب حسب حاجة الفكرة التي ترتكز عليها الشخصيّة في ملامحها الأصيلة.

إنَّنا نريد إثارة هذا اللون من الحديث لنصل من خلاله إلى نقطتين:

الأولى: حيث يوجد اتجاه منحرف يفرض نفسه على التصوّر الإسلامي في واقعنا المعاصر.. وهو الاتجاه الذي يريد أن يُطلق شخصيّة النبيّ محمّد(ص) في الأجواء الحميمة التي تمثّل الوداعة والتسامح والرفق بعيداً عن أيّة صورة تلتقي بالقوّة والعنف وفرض الحقّ على الآخرين، ليصلوا من خلال ذلك إلى استبعاد

قضيّة الحكم في أساليبه الواقعيّة المرتكزة على القوّة المسؤولة الحكيمة، والإيحاء بأنَّ الدين يمثّل مجموعةً من الوصايا والنصائح التي تخلق الشخصيّة الوديعة الساحرة في إطار روحيّ حميم، فلا هي تفرض نفسها على الآخرين من خلال الفكرة، ولا تفرض الفكرة على الحياة من خلال العنف، بل تترك للآخرين أن يفعلوا أو أن لا يفعلوا، باعتبار أنّ هذه القضية هي شأنٌ ذاتي. ويستشهدون على صحّة ذلك من ما يَرْوُونَه عن الرسول(ص) حسب زعمهم: «إنّما بُعِثتُ هادياً لا قاضياً». ومن الطبيعي أن تتحرّك خطوات الهادي في طريق الأساليب الحميمة والكلمات الرحيمة، بينما تنطلق خطوات القاضي في طريق القانون الحازم الحاسم الحاكم.

وقد يستشهدون على ذلك بالآيات التي تنفي الإكراه في الدين، والآيات التي تطلب من النبيّ أن يقول الحقّ، وتُتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿**فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(الكهف:٢٩) وبالآية الكريمة: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلعَالَمِينَ**﴾(الأنبياء:١٠٧).

إنَّ هذا الاتجاه يستمدُّ حركيّته من وحي التفكير المسيحي الذي يُحاول أن يُصوّر النبيّ بالصورة المثاليّة التي تبتعد عن العنف، وتكتفي أن تعيش في أجواء القداسة الحالمة الغارقة في أجواء الضباب الأخلاقي المثالي.. ولكنّنا ـ في ما قدّمناه من حديث ـ نستطيع أن نخرج بالنتيجة الحاسمة التي تضع تلك الآيات في إطار الدعوة.. وتُفسح المجال ـ بعد ذلك ـ لآيات القتال والجهاد

والحكم بالعدل ومواجهة الانحراف بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ومفاهيم العزّة والكرامة والقوّة.. لتتحرّك في مجال صنع الفكرة في خطوات الحياة بعد أن تقوم بتحريكها في مجال الفكر.. وقد يكون من الإخلاص للخطّ الإسلامي أن نَشُكّ أو نرفض الحديث المذكور بعد أن كان مخالفاً لكتاب اللّه الذي يخاطب النبيّ بقوله له: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسَ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيماً..**﴾(النساء:١٠٥) ومخالفاً لسنّة رسول اللّه الثابتة في قوله: «إنَّما أقضي بينكم بالإيمان والبيّنات»، ومنافياً لسيرته في الجهاد الذي يفرض من خلاله سيادة الإسلام على الأرض، وفي تطبيق القانون على المنحرفين المجرمين من السارقين والزناة وغيرهم.

أمّا مفهوم الرحمة في الإسلام، فإنّه لا يعيش في المشاعر العاطفيّة الذاتيّة الحميمة التي تلتقي بالمأساة في حياة الأفراد، بل يعيش في النظرة الواقعيّة التي تتمثّل في حماية الإنسان من نفسه عندما يُريد أن ينحرف، وحماية غيره من نفسه عندما يُريد أن يُسيء إلى غيره، وحماية الحياة من طغيان الإنسان على الحياة.. وبذلك تبتعد الرحمة عن خلجات الشعور لتتحرّك في صعيد الواقع لتحلّ المشكلة في جذورها العميقة.

والثانية: تتمثّل في الاتجاه الذي يتحرّك في إطار الواقع ليصنع الشخصيّة الإسلاميّة، لا سيّما شخصيّة الدعاة إلى اللّه على أساس المفاهيم السلبيّة التي تواجه الحياة من منطق الضعف

وعدم الولوج في مشاكلها الصعبة، باعتبار أنَّ ذلك يشوّه الصورة الوديعة البريئة لعلماء الدين والمتسامية عن الخلافات والمشاحنات لأنَّ مواجهة المشاكل بالإيجابية الحاسمة التي تضع النقاط على الحروف في حركة الواقع قد تدفعهم للدخول في صدامٍ وصراعٍ مع الآخرين، ما يجعلهم طرفاً في المشكلة، فيخرجون بذلك عن الحياد الطبيعي الذي يحكم شخصيّتهم ويبتعدون عن الجوّ الروحي الذي تفرضه طبيعتهم الدينيّة. ولعلّ هذا الأمر الذي جعل هذه الطريقة في السلوك ذات قيمة تتمثّل في تقديس الإنسان السلبي الذي يبتعد عن الدخول في المشاكل العملية، وينصرف إلى عباداته ومواعظه الهادئة البعيدة عن الواقع، باعتبار أنَّ ذلك يزيد في روحيّته ومحبّة النّاس له، ويبعده بالتالي عن الوقوف في وجه ضلالاتهم وانحرافاتهم، فلا يشعرون بخوفٍ على شهواتهم وأطماعهم وامتيازاتهم من خلال وجوده، لأنّه لا يتحرّك في هذا الاتجاه، وقد لا يجدون مانعاً من الاستماع إلى بعض المواعظ القاسية أو التعليقات الشديدة، ما لم تخرج من نطاق الكلمات وتتحوّل إلى خطواتٍ عمليةٍ على طريق الواقع.

إنَّ هذا الاتجاه قد بدأ يفرض نفسه على التقييم وعلى الشخصية الإسلامية، ونحن نريد من خلال دراستنا للشخصيّة النبويّة المتمثّلة في شخصيّة النبيّ محمّد(ص)، أن نأخذ منها الفكرة المستقيمة والمفهوم الصحيح الذي يرى في الإيجابيّة التي تُواجه الحياة بقوّة وحكمة، قيمة كبيرة من القيم الإسلامية التي تتميّز بها الشخصية المنسجمة مع الخطّ الصحيح عن تلك الشخصية البعيدة

عنه، كما أنَّنا نريد للتربية العمليّة للشخصيّة الإسلاميّة الدينيّة التي تحمل عبء العمل في سبيل اللّه على أكتافها، أن تجعل من سيرة النبيّ العمليّة القدوة ومِثال الشخصيّة المتكاملة التي تتعامل مع الواقع من خلال الحاجات العملية لقضاياه ومشاكله...

وأحسب أنّ ذلك هو الذي يخلّصنا من أساليب تجميد شخصيّة علماء الدين في إطارٍ تَهْرُبُ منه الصورُ الحيّة في الحياة.



الملامح العامّة للشخصيّة النبويّة

لقد تحدّث القرآن الكريم عن الملامح العامّة لشخصيّة النبيّ(ص)، ولكنّه لم يتحدّث عن سيرته الذاتيّة، خاصةً تلك التي تتعلّق بمولده ونوازعه الذاتيّة وغير ذلك من الملامح الشخصيّة التي لا تأثير لها في حياة النّاس، لأنَّ السيرة الذاتيّة ليس لها أيّ قيمة عمليّة في حساب الرسالة، إلاّ بقدر ما ترتبط بالرسالة ذاتها ممّا يُحقّق لها عطاءً وغنىً وحركةً.. بل ربَّما نفهم من خلال بعض الآيات الكريمة، أنَّ عظمة الرسول تكمن في تجسيده الحي للإسلام، لكي لا نتوقّف عند حياته في الدنيا ونتجمّد أمامها ونخشع لها، فإذا مات وانتقل إلى ربّه ماتت الرسالة في حياتنا، باعتبار أنَّ الارتباط بها تابعٌ للارتباط به، فلا وجود للرسالة في حال غيابه عن الدنيا.. بل لتجعل من حياته البداية والمنطلق والمرآة الصافية التي ننطلق لنراها بكلّ صفائها ونقائها، لِمَا تمثّله شخصيّته من رساليّة المضمون والممارسة، فإذا غاب عنّا فإنَّ رسالته المتجسّدة في آيات اللّه وكلماته وسيرته باقية لدنيا، لنتابع مسيرتنا على هداها انطلاقاً من الفكرة التي تجعل ارتباطنا به تابعاً للارتباط بالرسالة، باعتباره التجسيدَ الحيَّ لها.. كما جاء في قوله

تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أو قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾(آل عمران: ١٤٤).

وتتَّضح هذه الصورة بشكل كبير في الآية الكريمة التي توحي لنا بأنَّ علاقتنا برسول اللّه ترتكز على أساس صفته الرسالية وقيمته كخاتم للنبيِّين، بعيداً عن أيّة صفة أخرى أو علاقة ثانية.. وذلك هو قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُم وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَبِيِّين﴾(الأحزاب: ٤٠).

أمّا عن الملامح الأصيلة لشخصيّته ومدى علاقتها بالخطّ العملي للرسالة، فنرى أنَّ القرآن الكريم قد تحدّث عن خُلُقه العظيم وعن أسلوبه في الحوار ومشاعره تجاه الآخرين كما في الآيات:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾(القلم: ٤).

﴿لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيم﴾(التوبة: ١٢٨).

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانَفَضُّوا مِنْ حَولِك﴾(آل عمران: ١٥٩).

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون﴾(الأعراف: ١٥٨).

تتحدّث الآية الأولى عن خُلُقه العظيم بصورة عامّة، لتوحي لنا أنَّ الشخصيّة الرساليّة لا بُدَّ لها من أن تتسامى بخُلُقها في علاقتها بالآخرين، لأنَّ الخُلُق يُمثّل سموّ الرسالة وواقعيّتها في الإنسان،

وسموّ الإنسان في الرسالة، باعتبار أنّ الرسالة تُمثّل الخطّ الأخلاقي العظيم في حركة الإنسان في الحياة، ما يجعل من تحرّك الإنسان في دعوته منطلقَ قوّة لا منطلقَ ضعفٍ لِمَا يُوحيه من ثقةٍ وامتداد واطمئنان.

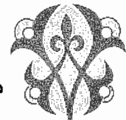
وفي الآية الثانية نواجه الشخصيّة الرساليّة من خلال الاهتمامات الذاتيّة بالآخرين في الداخل، حيث يعيش النبيّ بشكل شعوري عميق كلّ المشاكل والآلام والمتاعب التي تواجه النّاس وتُجهدهم، فنراهُ يحرصُ عليهم، من منطلق إحساسه الداخلي المفعم بالرحمة والرأفة، حِرْصَه على نفسه.

وأمّا الآية الثالثة فإنّها تتحدّث لنا عن صفتين أساسيتين في نجاح الرسالة:

الأولى: لين الجانب ووداعة الكلمة وسماحتها، لأنَّ الإنسان الذي يعيش قسوة القلب وشدّته لا يمكن أن يعيش الحبّ للآخرين، وبالتالي لا يستطيع التفاعل معهم في عملية صدق ومعاناة.

والثانية: رقّة القلب ورحمته، لأنَّ الإنسان الذي يعيش فظاظة اللسان ونَزَقَ الكلمة وغِلْظَةَ الأسلوب لا يستطيع أن يَدْخل إلى وجدان النّاس وضمائرهم.

ونلتقي في الآية الرابعة بالصفة الأساسّية في شخصيّة الرسول، وهي إيمانه باللّه وكلماته حيث تلتقي مع آية أخرى في موضعٍ آخر: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ**﴾(الزمر:٣٣). لتؤكّد انطلاقةَ الدعوة من موقع الإيمان العميق بمفاهيمها، المنطلقة



من المسؤوليّة في الداخل، لا من موقع المسؤولية من خارج الذات.

تلك هي بعض ملامح الصورة التي تفرض علينا السؤال التالي: لماذا ركّز القرآن الكريم على هذه النوعية من الصفات دون غيرها؟

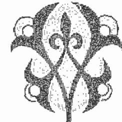
ربّما يكون الأساس في ذلك كلّه، هو ما ألمحنا إليه في بداية هذا البحث من أنَّ القرآن يركّز على شخصيّة الرسول في شخصيّة النبيّ محمّد(ص) ويتحدّث عنه من خلال الصفات المتعلّقة بالدور الرِّسالي له، لأنَّ ذلك يقتضي أن يتمتَّع بانفتاح روحيّ وخُلُقٍ رفيع وأسلوبٍ حكيمٍ رقيق، ليتمكّن من معالجة مشاكل النّاس وهمومهم، وبالتالي من إيصال الدعوة إلى قلوبهم، وباختصار، أن يمتلك ناصية الإيمان، وإيماناً بالرسالة لا يشوبه شك ولا يُصيبه اهتزاز، لتكون الرسالة جزءاً من ذاته.. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في الآية الثالثة: ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك**﴾(آل عمران:١٥٩).

ولكن.. هل هذه هي صفات الرسول التي يريد القرآن أن يوحي بها ليقدّم للنّاس الصورة العظيمة عن شخصيّته، أو هي صفات الدّاعية المسؤول الذي كان النبيّ الأنموذج الأمثل له.. ما يجعلها من صفات القدوة للعاملين في سبيل اللّه؟!

إنَّنا نعتقد أنَّها من صفات القدوة التي تدعو العاملين إلى أن يعيشوها في حياتهم، ليشعروا بأنَّ أخلاقهم ليست شأناً ذاتيّاً لهم، وأنَّ أساليبهم ليست ممارسات شخصيّةً لأنفسهم، وأن ليس من حقّهم أن يعيشوا كما يريدون في كلّ نقاط ضعفهم الأخلاقي،

أو أن ينطلقوا مع مزاجهم الذاتي في أساليبهم العملية، كما أنَّه ليس من حقّهم أن يجعلوا النّاس تتعقّد من الرسالة أو يكفروا بها، لأنَّ الرسالة ليست أمراً شخصيّاً، بل هي أمر اللّه، ولا بُدَّ للنّاس من أن ينسجموا معها، فيُخضعوا أخلاقهم وأساليبهم لخطّها الأصيل، أو ينسحبوا من مواقع المسؤوليّة ليوفّروا على الإسلام مزيداً من المتاعب والسلبيّات التي يواجهها من خلال سوء تصرُّفات الدعاة إليه.





الرسول(ص) في مواجهة التحدِّيات

إنَّ القرآن يصوّر لنا النبيّ(ص) وهو يواجه التحدِّيات في إطار الإنسان الذي تكاد الضغوطات أن تزلزله عن موقفه، أو تقوده إلى التراجع، وذلك نظراً لحراجة الموقف الذي يواجهه، ما يوحي بأنَّ القضيّة لا تعيش في طبيعته الذاتية، بل في طبيعة التحدِّيات التي توحي بشيء من هذا القبيل لولا الإيمان.. ولنتابع بعض هذه الآيات:

﴿فلَعَلَّك تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أنْ يَقُولُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أو جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إنَّمَا أنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كلِّ شَيْءٍ وَكِيل﴾(هود:١٢).

﴿قَدْ نَعْلَمُ إنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فَإنَّهُم لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُون * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وأُوذُوا حَتَّى أتَاهُم نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأ المُرْسَلِين * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْرَاضُهُم فَإنِ اسْتَطَعْتَ أنْ تَبْتَغِيَ نَفَقَاً في الأرضِ أو سُلَّماً في السَّمَاءِ فَتَأتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَو شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِين﴾(الأنعام:٣٣ - ٣٥).

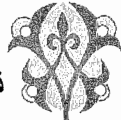
أ ـ أجواء مثيرة

توحي هذه الآيات أنَّ هناك جوّاً مثيراً يريد الآخرون خَلْقَهُ في نَفْسِ الرسول عَبْرَ ما تقدّموا به من طلباتٍ غير معقولة لا قدرة للجهد البشري على تحقيقها، محاولين بذلك حشد جملة من العوامل السلبيّة، اعتقاداً منهم بأنّهم يستطيعون بهذا الأسلوب أن يكشفوا أمام النّاس ضعف النبيّ(ص) في دعواه الرسالة عن اللّه، وإضعاف ثقته بقوّة موقفه، لأنَّه يتحرّك في إطار المحدوديّة التي تجعله غير قادر على مواجهة التحدّيات.

وهنا تأتي الآيات لتضع القضيّة في مكانها الطبيعي، وهي أنَّ التحدّيات لم تواجه دوره الطبيعي في خطِّ الرسالة ليشعر بالضعف من خلال ذلك، بل واجهت أموراً ليست من مهمته، فكان من الطبيعي أن لا يستجيب لمطالبهم، لأنَّ ذلك يؤكِّد المفهوم الخاطئ في نفوسهم عن طبيعة ودور الرسول في الحياة. بل كان عليه أن يواجههم ـ من خلال قوّة موقفه ـ بتصحيح هذا المفهوم.

ثُمَّ تتحرّك الآيات لتربط الموقف بنقطة أساسية تخرج من الموقف عن جوِّ التحدّي للذات.. وهي أنَّ الرسول لا يتحرّك بصفته الذاتيّة، بل بصفته الرساليّة التي تعني أنّه يمثِّل اللّه في دعوته، لأنَّه يدعو إلى اللّه باسم اللّه، وبذلك يكون التكذيب موجَّهاً إلى اللّه، وليس موجَّهاً إليه، ما يدفع بالقضية بعيداً عن جوّ التأزّم النفسي الخاضع غالباً للمؤثّرات الذاتيّة.

ثُمَّ تمتدُّ الآيات في تفريغ الداخل من جوِّ الأزمة بأسلوب آخر..



فإنَّ التكذيب ليس حادثاً طارئاً بل هو حلقة من سلسلةٍ متّصلة في تاريخ النبوّات، تنطلق من حقيقة موضوعية، وهي أنَّ النبيّ ـ أيّ نبيّ ـ ينطلق لتغيير العالم من الداخل والخارج، من خلال القضاء على المفاهيم الخاطئة والواقع المنحرف كان لا بُدَّ أن يُقابَل بالتكذيب، لأنَّه كان يتحدّى الواقع المعاش الذي تتحرّك فيه كلّ امتيازات الطغاة والجبابرة والمنحرفين، في محاولة منه لإلغاء كلّ هذه الامتيازات لمصلحة الإنسان، وقد كان الأنبياء يصبرون على ذلك كلّه، لا من موقع التماسك الذاتي فحسب، بل على أساس الفهم الواعي للواقع الذي يقرّر بأنَّ عملية التغيير لا بُدَّ أن تمرّ بمراحل طويلة، يدور فيها الصراع حول العقيدة والمفاهيم والمواقف، ما يجعل المجتمع يتحرّك في اتجاه رفضها أو تأييدها في المرحلة التي تسبق مرحلة الاستقرار في أعماق الحياة الإنسانيّة.

ثُمَّ تؤكّد هذه الآيات له أنَّ هذا الموقف الطبيعي للنبوَّة السائرة ـ بقوّةٍ ـ نحو أهدافها يكون بالثبات الهادف في مواجهة التحدّيات، فلا يستمدُّ النبيّ قوّة موقفه من تجاوب الآخرين معه، بل ينطلق من ثقته بربِّه وبنفسه في خطواته العملية نحو المستقبل.. أمّا إذا أراد التراجع عن موقفه، والعيش في إطار الضيق الذاتي، والانسحاق النفسي، فإنّه لن يقوى على مواجهة التحدّيات، الأمر الذي سيجعله عاجزاً عن تحقيق أيِّ شيء ممّا يطلبون.

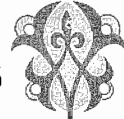
ثُمَّ تركّز الآية على نقطة مهمّة جداً، وهي إثارة التساؤل عن الهدف من كلّ هذا الجهد الذي يريد أن يصل من خلاله إلى هدايتهم

بشكلٍ غير طبيعي، وذلك بالتجاوب معهم في ما يريدونه من تغيير الواقع بطريقة معجزة. فإذا كان الهدف هو هدايتهم بطريقة غير عادية فلا حاجة إلى ذلك، لأنّه بإمكان اللّه أن يهديهم بطريقة تكوينية فيجعلهم مهتدين.. ولكنَّ حكمته انطلقت على أساس إيمانهم بطُرُقٍ طبيعية من خلال القناعة الذاتيّة في ظروفها الموضوعيّة الطبيعيّة.

ب ـ ضغوطات نفسيّة

وقد نلتقي في آيات مماثلة في تصويرها للجوّ النفسي الذي يمرّ به الداعية متجسّداً في شخصيّة الرسول عندما يتعرّض للأساليب العاطفيّة التي تحاول أن تنحوَ به بعيداً عن خطّ الرسالة من أجل أن يربح ثقة النّاس عندما يريدون أن ينقلوه من موقعٍ إلى موقع، للإيحاء له بأنَّ ذلك يجعلهم قريبين إليه، وبالتالي إلى دعوته، ليأخذوا منه الاعتراف الرسمي بما يريدون ثُمَّ يتركونه بعد أن يستنزفوه ويستنفدوه.. وهذا ما نتمثّله في هذه الآيات الكريمة: **﴿وَإِنْ كادُوا لَيَفتِنُونَكَ عَنِ الَّذي أوْحَيْنَا إليْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيرَه وإذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً * وَلَوْلا أنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئَاً قَلِيلاً * إذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الحَيَاةِ وَضِعْفَ المَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ عَلَيْنَا نَصِيراً * وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأرْضِ لِيُخرِجُوكَ مِنْهَا وَإذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إلاَّ قَلِيلاً﴾**(الإسراء:٧٣ـ ٧٦).

إنَّ جوَّ الآيات يوحي بأنَّ هناك أساليب خبيثة قد استُعملت من



قبل الكافرين لزحزحة الرسول عن موقفه وفتنته عن رسالته من أجل أن يخرج على خطِّها ومفاهيمها الأساسية، لمصلحة خطّ الكفر الذي يُراد منه أن يقدّمه للنّاس باسم الإيمان.. ولعلّ في التعبير بـ «ليفتنونك» إيحاءً ببراعة الأساليب ومرونتها، بحيث لا تستثير لديه روح الحذر، بل تنساب في مشاعره انسياباً عفوياً يواجه النوازع الحميمة بهدوء وانسجام، ليتحوّل - لا شعوريّاً - عن خطّ مبادئه المثلى.

أمّا السؤال الآن فهو: هل كانت الحالة النفسيّة للنبيّ(ص) هي ما تواجهنا به الآية لتكون النتيجة هي أنّ النبيّ(ص) قد يستسلم للتأثيرات المتنوّعة والأساليب الذكيّة التي لجأ الأعداء إلى استخدامها، لولا أنَّ اللّه يثبّته على الخطِّ بالروح القدسيّة التي تستيقظ في أيّة حالةٍ من حالات الغفلة فينتبه إلى طبيعة الموقف من خلال النتائج التي يقود إليها؟! أو أنَّ القضية هي اعتبار شخصيّة النبيّ أنموذجاً حيّاً للداعية المسلم الذي قد يتعرّض لمثل هذه الأساليب فينجذب إليها انجذاباً عفوياً تماماً كاختلاجات أعضاء الجسد لدى حدوث بعض الأسباب الموجبة لذلك، فكان لذلك قيمة التأكيد على أهميّة الثبات على الخطّ، والوعي النفّاذ إلى الوسائل الجهنميّة التي يحاول الأعداء من خلالها إبعاد العاملين عن أهدافهم؟!

وفي كلا الحالين نعرف أنَّ النبيّ قد تعرّض لمثل هذه الأساليب، وقد نبّه القرآن إلى خطورتها من خلال التنبيه إلى خطورة نتائجها

في حساب المسؤولية بالمستوى الكبير، وأثار أمام الداعية الفكرة الواعية التي تدفعه إلى الابتعاد عن أجواء الخديعة التي يثيرها الكافرون من خلال عروض الصداقة في حالات الانسجام.. وربَّما كان الواقع الذي نعيشه يتضمّن كثيراً من هذه الأجواء التي تقرُب من هذا الجوّ الخطر، سواء على مستوى التيّار المنحرف في العقيدة والحياة، أو على مستوى الحكم المنحرف أو غير ذلك ممّا يواجهه الإنسان على صعيد العمل الرسالي.

وإنَّنا نرى في هذا الأسلوب نموذجاً من أساليب القرآن الكريم لمخاطبة الأمّة من خلال النبيّ محمّد(ص)، لأنَّنا نعرف في شخصيّته الرساليّة القوّة القيادية التي لا يمكن أن تَهْتَزَّ أمام كلّ عوامل الخديعة والانحراف.. ولعلّ المراد بتثبيت اللّه في هذه المواقف، هو ما ارتكزت عليه شخصيّته من عوامل القوّة والإيمان، وليس شيئاً طارئاً أو عارضاً عليه.

وقد حدّثنا القرآن الكريم عن بعض الحالات النفسيّة التي كان يعيشها النبيّ محمّد(ص) إزاء حالات الكفران والجحود، ولكن في اتجاهٍ آخر غير الذي أشرنا إليه.. وهو أنَّه كان يتطلّع إلى الكافرين بروح الإنسان الذي يتألم لهم ويحزن عليهم، لأنَّ كفرهم وطغيانهم سوف يُشقيهم في حياتهم الدنيا عندما ينحرفون عن الخطّ المستقيم، فيبتعدون عمّا يُهيّىء لهم السعادة فيها، ويُشقيهم في الآخرة عندما يؤدّي بهم انحرافهم عن اللّه إلى التعرّض لعذابه. وبتعبير آخر، إنَّه لا يعتبر الرسالة تكليفاً صادراً من خارج ذاته، بل

يعتبرها قضيّته الذاتيّة التي امتزجت بإنسانيّته، فيتحرّك من موقع الإحساس بها من الداخل لا من موقع الخروج عن عهدتها على أساس المسؤوليّة القانونية.

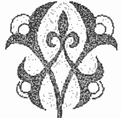
﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِه فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِم حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾(فاطر:٨).

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ألاّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾(الشعراء:٣).

﴿وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِم وَلا تَكُ فِي ضِيقٍ ممَّا يَمْكُرُونَ﴾(النحل:١٢٧).

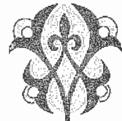
ولعلّنا نستطيع أن نستوحي من هذه الآيات روحاً جديدة ينبغي للعاملين في سبيل اللّه أن يعيشوها إزاء النّاس، وهي الروح التي تتعاطف معهم وتحزن عليهم وتُحسّ بالألم الكبير لضلالهم، الأمر الذي يدفعها إلى أن تَصبر وتُثابر وتُلاحق كلّ الوسائل والظروف في سبيل هدايتهم والوصول إلى قناعتهم، تماماً كأيّة مشكلة تحصل لإنسان نرتبط به برباط القربى أو غيرها من الروابط الذاتية، حيث لا ندّخر وسعاً في ملاحقة كلّ الإمكانيات للحلّ ولو كانت بعيدة أو متعبة.

إنَّها روحُ الرساليين الذين يعيشون الحبّ للنّاس والحرص عليهم.. يواصلون المسيرة معهم ومن أجلهم دون تأفّف أو تذمّر أو مَلل أو استعجال لليأس، وذلك إيماناً منهم في استمراريّة السير في خطّ الرسالة. أمّا الذين يحقدون على النّاس أمام أيّة حالة تمرّد



بعيداً عن دراسة ظروفهم التي أدّت بهم إلى ذلك ولا يحاولون البحث عن سُبُلٍ جديدة للهداية، ويتوقّفون عند الأساليب الجاهزة لديهم، ممّا قد لا يتناسب مع عقليّتهم فهؤلاء يتحوّلون إلى عبءٍ على الرسالة بدلاً من أن يكونوا دعاةً لها، لأنَّ روحيّة الحقد لا يمكن أن تصنع الرسالات.





إشكالات مفهوميّة في الإعجاز

لقد واجه النبيّ في مسيرته النبويّة مشكلة المفاهيم المختلفة التي توارثها النّاس عن أسلافهم حول طبيعة النبوّة ودورها وقدراتها وشخصيّة النبيّ وقدراته، فقد كانوا يَرَوْنَ أنَّ النبوّة تمثِّل حركةً غير عادية في طبيعة الحياة من خلال ما توحيه من ارتباط الإنسان بالله الكليِّ القدرة، ما يجعل للنبيّ القدرة المطلقة التي يكشف من خلالها الغيب، ويغيّر بها طبيعة الأشياء على خلاف القوانين الطبيعية المألوفة، انطلاقاً من فكرة المعجزة المرتبطة بمفهوم النبوّة ارتباطاً وثيقاً بالمستوى الذي يجعل منها حالة ذاتيّة ثابتة لدى النبيّ، لا حالة طارئة خارج قدراته الطبيعية، وبذلك يتوقّف الاعتراف بالنبوّة على ملاحظة ما يملكه في هذا المجال.. وكانوا إلى جانب ذلك، لا يألفون فكرة النبيّ البشر، لأنَّ البشرية لا تنسجم مع روحيّة النبوّة التي تقتضي نوعاً من السموّ الروحي الذي يرتفع بالإنسان بعيداً عن كلّ ما يتَّصل بالمادة من قريب أو بعيد ممّا تقتضيه طبيعة البشرية من خضوعٍ لضرورات الحياة وحاجاتها الطبيعية، فلا بُدَّ أن يكون مَلَكاً يملك روحيّة الملائكة وطاقاتهم الهائلة فيما كان العرب يعتقدونه فيهم.

وقد حدّثنا القرآن الكريم عن بعض هذه المواقف التي تعرّضَ لها النبيّ محمّد(ص) من قِبَلِ قومه في مكَّة واليهود في المدينة، وقد نجد في هذه الآيات بعض الإيحاءات التي نحسّ معها بالحالة النفسيّة الضاغطة التي كان يعيشها النبيّ من خلال هذه التحدّيات المنطلقة من المفهوم العام للنبوَّة، ما يجعل للموقف المضادّ قوّة التأثير على الرأي العام. ولكنَّنا لا نجد تراجعاً من النبيّ عن موقفه وعن مواجهة ذلك كلّه بالموقف الصحيح الذي يُراد منه تأكيد المفهوم الإسلامي للنبوّة في مهمَّاتها وللنبيّ في قدراته، والإيحاء بأنَّ النبوَّة لا تتحرّك في إطار خلق الصدمات المتلاحقة للأفراد والمجتمعات، لتنقلهم من صرعةٍ إلى صرعة في صدمات الإعجاز التي تُخرج الحياة عن المألوف دائماً، فتُبهر العقول والأبصار، بما لا تستطيع تفسيره وفهمه فتخشع له.. بل إنَّها تتحرّك في اتجاه تحريك العقل البشري نحو القضايا الفكرية من موقعٍ فكريٍّ طبيعي يُلاحق الفكرة بأدواتها الطبيعيّة لتصل إلى العقيدة بأقرب طريق، وترتبط بالمفاهيم العامة لها من خلال الأسس المرتكزة عليها، لأنَّ النبوّة تنطلق من قاعدة صُنْع الإنسان وتنميته ليمارس دوره الفاعل في خلافته عن اللّه في الأرض، ولا تستهدف تحويله إلى شخص مسحور يعيش الانبهار بالأساليب غير العادية من دون نتيجة كبيرة.

أمّا البشرية في النبوَّة، فتمثِّل الإطار الذي يضع الصورة في مكانها الطبيعي، لأنَّ النبيّ يمثِّل التجسيد الحيّ للمعاني التي يريد الدِّين أن يجسّدها في شخصيّة الإنسان وحياته، فلا بُدَّ أن يكون

تجربةً حيّةً متحرّكة أمامه ليكون مثالاً واقعيّاً على السمات الواقعيّة للفكرة، لأنَّ النبيّ لو كان مَلَكاً لما كان في تجربته أيُّ حافزٍ للإنسان على ملاحقة الفكرة في عملية تَمَثُّلٍ واقتداء، انطلاقاً من الضغط الشعوري الذي يجعل القضية تتجاوز قدراته الذاتية، لأنَّها لم تنطلق من بشر، بل عاشت في كيان المَلَك، وهذا ما قرّره اللّه سبحانه في كتابه:

﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٥).

أمّا المعجزة، فإنَّها ليست عملاً من النبيّ بل هي من اللّه، ثُمَّ هي الطريقة الإلهيّة التي يُراد بها إعطاء الصدمة، التي تُواجه التحدّي الكبير الذي يُريد أن يشلَّ الحركة، فتأتي لترفع الحواجز الكبيرة من طريق العمل الكبير، ولهذا نجد للمعجزة دورها المتحرّك الفاعل في حياة النبيِّين، بل نواجه بعض الحالات البسيطة التي تنطلق المعجزة فيها لتردّ التحدّي أو لتعطي انطباعاً، ثُمَّ يتركها النبيّ خلفه عندما يمارس رسالته دعوةً وعملاً، من دون أن يُشير إليها من قريب أو بعيد بشكل أساسي إلاَّ إذا دعت الحاجة إلى التذكير بها.

وقد يتأكّد هذا المعنى إذا رأينا أنَّ النبوّة لم تقدِّم المعجزة في البداية، لتكون في قلب الواجهة للدعوة، بل قدّمت في البداية مفاهيمها العامّة بالأسلوب الطبيعي المألوف، سواء في طريقة عرض الفكرة أو في أسلوب الدفاع عنها، أو إقناع الآخرين بها، وكانت المعجزة تعيش في بعض المراحل المتوسِّطة والنهائيّة، كما

نجده في نبوَّة نوحٍ وهودٍ وإبراهيم أو شُعيب أو موسى الذي كانت معجزة العصا واليد عنده موجّهة إلى فرعون وجنده لا إلى النّاس العاديين الذين دعاهم إلى رسالته.

وعلى ضوء هذا، نجد الرفض المُطْلَق في القرآن الكريم لكلِّ الاقتراحات التي قُدِّمت إلى النبيّ في هذا السبيل، لأنَّه لم يجد أيّ حاجة لذلك، بعد أن كان القرآن معجزةً خالدة لمن أراد أن يعرف ارتباط النبيّ باللّه، كما أنَّ هذه التحدّيات، لم تكن تُشكّل حاجزاً كبيراً بين الرِّسالة وبين انطلاقتها الكبرى، بل لا تزيد عن إرضاء غرور هؤلاء المشركين وزهوهم الذاتي لدى أنفسهم والآخرين المحيطين بهم، من دون أن يعطِّلوا المسيرة النبويّة المنطلقة من موقع العقل والفكر.

وهذا ما نتمثّله في أجواء الآيات التالية:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً * أو تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفَاً أوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلائكَةِ قَبِيلاً * أوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَراً رَسُولاً * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أنْ يُؤْمِنُوا إذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إلاَّ أنْ قَالُوا أبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولاً * قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُولاً * قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُم إنَّه كَانَ بِعِبَادِهِ

خَبِيراً بَصِيراً﴾(الإسراء:٩٠ـ ٩٦).

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الحُكْمُ إِلاَّ للَّه يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِين * قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُم وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِين﴾(الأنعام:٥٧ـ ٥٨).

هذه هي بعض نماذج الاقتراحات التي كانت تُقدَّم إلى النبيّ(ص) على سبيل التحدّي من أجل أن يهزموا موقفه لتبيان عجزه عن إثبات رسالته.. ونلاحظ في هذا المجال عدّة أمور:

١ ـ إنَّهم لا ينطلقون من تفكير واضح، بل يتحرّكون في تصوّر عشوائي يطرح المطالب من موقع الإنسان الباحث عن الأشياء المستحيلة أو الصعبة التي لا يَقْدِرُ الإنسانُ على تحقيقها، أو لا يمكن أن يُجريها اللَّه على يده، ولهذا تتلاحق الطلبات بشكلٍ غير منتظم ومتناسب، فبينما نراهم يطلبون منه في الآيات الأولى أن يفجِّر لهم من الأرض ينبوعاً أو يملك جنّةً من نخيل وعنب فيفجّر الأنهار خلالها تفجيراً، كما نراهم يطلبون أن تُسْقِط السَّماء عليهم كسفاً أو يأتي باللَّه والملائكة قبيلاً.. وفجأةً يطلبون أن يرقى في السَّماء وأن يرجع ومعه شاهد على ذلك، وهو الكتاب الذي يجلبه معه لقراءته والتعرّف على رسالته.

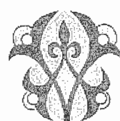
٢ ـ إنَّ الجواب الذي علَّمه اللّه لرسوله، هو أن يواجه القضية بهدوء رسالي يقرّبهم إلى الحقيقة الإنسانيّة، ويقول لهم إنَّ هذه الأمور ليست من مهمَّته، وهي خارجة عن نطاق قدرته. وأمّا عدم

القدرة فلبشريّته، وأمّا أنَّها ليست من مهمّته فلرساليّته، التي تنطلق من تغيير الواقع على أساس إرادة اللّه، لا إصدار المعاجز اليومية على أساس الاقتراحات المزاجية.

ونلاحظ في هذا المجال أنّ النبيّ لم يعتبر هذا الموقف منه ضعفاً أمامهم، لأنَّ مجاله ليس مجال عرض العضلات للقوّة الذاتيّة، بل مجاله الطبيعي هو مجال إثارة المنهج في عقولهم ودفعهم إلى التراجع عن موقفهم والسير مع الخطّ السليم، ما يجعل من قضيّة القوّة والضعف أمراً نسبيّاً يرتبط بالمضمون لا بالشّكل، وبذلك تكون قوّته في صموده أمام التحدّي لخدمة القضية، لا الابتعاد عن خطّه والاستسلام لمطالبهم المستحيلة.

٣ ـ إنَّ على العاملين في سبيل اللّه أن يستفيدوا من ذلك في مرحلتهم الحاضرة، بحيث ينطلقون من ركائز ثابتة وقواعد صلبة يتمكّنون من خلالها إثبات مبادئهم ومفاهيمهم أمام المزايدات والتحدّيات في القضايا البعيدة عن مهمَّتهم بقصد إبعادهم عن خطوطهم أو زحزحتهم عن مواقفهم.. إنَّ عليهم أن يعرفوا جيّداً أنَّ المواقف الطارئة لا تستطيع أن تُحقّق نجاحاً إذا انحرفت عن الخطّ، لأنَّ الآخرين سوف يستغلّون هذا الخوف في مزايداتهم لفرض مواقف جديدة تزيد الإنسانَ بُعداً عن مبادئه ومفاهيمه، وتزيد النّاسَ الذين يدعوهم إلى اللّه ابتعاداً عن الارتباط الواعي بالهدف الكبير، المنطلق من المواقف الصلبة الثابتة.





المسؤوليّة لا تمثّل امتيازاً ذاتيّاً

نلاحظ في تاريخ النبيّ القرآني.. كثيراً من الآيات التي تخاطب النبيّ بأسلوب الوعيد والتهديد والمواجهة الحسابية الدقيقة على أساس افتراض الانحراف عن الخطّ المستقيم في مجال العقيدة أو في مجال العمل، ولا نجد هناك أيّ تغليف لهذا الأسلوب بأيٍّ غلاف من التبجيل أو التوقير الذي تفرضه طبيعة المستوى العظيم الذي رفعه اللّه إليه في «ذاته» المقدّسة وفي نبوّته العظيمة.

وهذا ما تمثّله الآيات التالية

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(الزمر:٦٥).

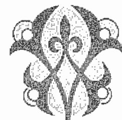
﴿وَلَو تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيل * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(الحاقة: ٤٤ـ٤٧).

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(الأنعام:١٥).

﴿وأن أقِمْ وَجْـهَكَ للدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإنْ فَعَلْتَ فَإنَّكَ إذاً مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(يونس:١٠٥ـ١٠٦).

نفهم من خلال هذه الآيات، أنَّ المسؤوليّة لا تُمثّل امتيازاً يرتفع به الإنسان عن الانسجام مع الخطّ العملي، بل تمثّل مواجهةً حقيقيّةً للموقف تحت طائلة العقاب الشديد، ما يُلغي الأساليب التقليدية التي تعتبر الأشخاص الذين يملكون المراكز القيادية أكبر من النَّقْد أو من المواجهة المباشرة على تقدير الانحراف، ويفرض على المسلمين ـ بدلاً من ذلك ـ أسلوباً جديداً تنطلق فيه المسؤوليّة لتحدّد للإنسان موقعه ومكانته من خلال انسجامه مع خطّها العام، وقد لا نحتاج إلى التنبيه إلى أنَّ النبيّ(ص) لم يكن في هذا الاتجاه، ليفرض في حالته الإشراك أو التقوّل على اللّه، لأنَّ روحه النبويّة الرساليّة لا تستسلم لمثل هذه الحالات المنحرفة، فرسالته كانت من أجل إنقاذ النّاس منها، ولكن هذا التَّنبيه كان أسلوباً عملياً لمخاطبة الأمّة من خلال النبيّ(ص)، للإيحاء لهم بمثل هذا الأسلوب في حياتهم العمليّة.

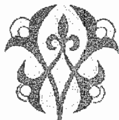
لقد وردت آيات كثيرةٌ تدعو النبيّ(ص) إلى أن يقرّب الفقراء إليه ويعيش معهم باعتبار أنَّهم يمثّلون الفئة المؤمنة التي تلتقي باللّه في صفاءٍ ونقاءٍ وروحانيّةٍ، وتدعوه إلى أن لا يستسلم للأجواء المُتْرفة المُحَاطة بزهو الحياة وزينتها ممّا يعيشه المترفُون اللاهون العابثون الذين لا تنفتح قلوبهم للّه في خشوع الإيمان.



الانسجام مع خطّ الرسالة

إنَّنا نلاحظ في هذه الآيات انسجاماً مع خطِّ الرسالة في شخصيّة الرسول عندما ترتبط بالقاعدة المؤمنة من خلال إيمانها الصَّافي العميق، بعيداً عن كلّ مظاهر العظمة والترف، لأنَّ القيمة كلّ القيمة هي في ما تمثّله من الإيمان الذي يجعل العلاقات خاضعةً لذلك.

أمّا الجوانب الأخرى التي يتعاظم بها النّاس خارج نطاق الإيمان، فقد تجذب الأشخاص الذين لا يعيشون رساليّة الحياة، بل ينجذبون إلى شهواتها ومظاهرها، ويَرَوْن فيها كلّ القيمة، أمّا الرساليّون فقد لا يجدون فيها مجد القيمة، بل قد يرونها ضدّ القيمة، من خلال الممارسات المنحرفة، التي تهوي بالإنسان إلى مكانٍ سحيق.. إنَّها ليست عقدة ضدّ الغنى والأغنياء، بل كلّ ما هناك أنّها تتَّجه اتِّجاهاً في جانب العلاقة الإيجابيّة للإيمان مع الفقر، وتتحوّل إلى اتجاه سلبي في رفض المظاهر المنحرفة للغنى في طريق الضلال **﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالغَدَاةِ وَالعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَه وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُم تُرِيدُ**



﴿زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾(الكهف:٢٨).

نلاحظ في هذه الآية أنَّ الدعوة انطلقت بكلمة ﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ ما يوحي بأنَّ القضية تحتاج إلى معاناة وتأمّلٍ وصبرٍ، لأنَّ العيش مع المستضعفين قد يوحي للإنسان الغافل بالمهانة التي لا تتناسب مع مركزه الاجتماعي. وقد تُطرَح القضيّة بأسلوب آخر يوحي بأنَّ هناك حادثةً طلب فيها بعض النّاس من النبيّ أن يطرد مَنْ حوله من الفقراء، فكان التوجيه القرآني في مواجهة هذه العقلية، بأسلوبٍ قويّ حاسم:

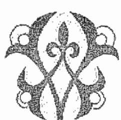
﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيء فَتَطْرُدَهُم فَتَكُونَ مِنَ الظَّالمِينَ﴾(الأنعام:٥٢).

إنَّ هذه الآية تؤكّد على الصفة الروحيّة المتمثّلة في الممارسات العمليّة لإخلاص المؤمنين للّه، بعيداً عن أيّة صفةٍ أخرى طارئة.. ولا بُدَّ للرسول أن ينسجم مع هذا الاتجاه انطلاقاً من عمق رسالته، فيقرّبهم إليه ولا يطردهم لفقرهم ووضاعتهم الاجتماعية، ثُمَّ لماذا يطردهم؟ إنَّ القضيّة ليست هي علاقته بهم وعلاقتهم به، فلا هم يُحَاسَبُون عنه، ولا هو يُحاسَب عنهم.. وتنتهي الآية إلى اعتبار ذلك ظلماً كبيراً.

ويَعْنفُ الأسلوب في سورة «عبس» ﴿أمّا مَنِ اسْتَغْنَى * فأنْتَ لَهُ تَصَدَّى * وَمَا عَلَيْكَ ألاَّ يَزَّكَّى * وأمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى * وَهُوَ يَخْشَى * فأنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾(عبس:٥ ـ ١٠).

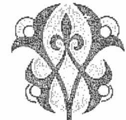
الدعوة عامّة للبشر

إنَّه يُعالج حالة عامَّة، هي حالة الاهتمام بالأغنياء في مقابل التلهّي عن الفقراء.. ونتساءل: هل هي دعوة لِتَرْكِ الأغنياء يعيشون على هواهم وضلالهم فيُوجِّهون طاقاتهم في اتجاه الشرّ والعصيان.. والاكتفاء بالفقراء في مجال الدعوة إلى اللّه، ونجيب: ليست القضية كذلك، فالدعوة عامّة للبشر كلِّهم، فقيرهم وغنيِّهم، والنبيّ مسؤول عن هداية الجميع.. ولكنَّ القضية هي ـ كما صرّحت الآيات ـ أن لا يصرفَ الإنسانُ بوجهِه عن الفقراء ويتلهَّى عنهم بالأغنياء، لينشغفَ بهم لمكانتهم ولثروتهم، وقد لا تكون الرسالة واردة في حسابهم ممّا يحتاج إلى جهدٍ كبير لإدخالهم في الجوّ وإخراجهم من حالات اللامبالاة، بينما يقف أولئك الضعفاء الفقراء، وفي قلوبهم خشية اللّه التي تدفعهم إلى العمل، وفي أعينهم تطلُّعات الإيمان التي تقودهم إلى المعرفة.. فليس بين الداعية وبين السير في رسالته معهم إلاَّ أن يعلِّمهم فيتعلَّموا ويأمرهم فيُطيعوا، فكيف يتركهم حيارى ويستسلم للغافلين السكارى؟!



وهكذا نجد في هذه الآيات التي عاشت في أجواء النبيّ(ص) على أساس الأحداث المتنوّعة في مسيرة الرسالة.. درساً عملياً لنا بأن نعيش الرسالة في أجواء البسطاء والضعفاء والفقراء من المؤمنين الذين يبحثون عن المعرفة وعن الخطّ العملي السليم، ولا نوحي لأنفسنا بالمراكز الكبيرة التي نحتلّها في المجتمع فنبتعد عنهم ونستطيل عليهم، لأنَّ المركز الكبير للإنسان الرِّسالي يتجسّد في الارتباط برسالته وبقاعدته، لا بامتيازاته الدنيويّة. وبذلك يبقى الارتباط الواعي بالقاعدة على أساس عضوي بعيداً عن الهزاهز السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، لأنَّ ذلك هو السبيل الأفضل لتركيز المسيرة ووعي الهدف، ومعه لن يتحوّل العاملون في سبيل اللّه إلى طبقة اجتماعيّة تشعر بالحواجز الطبقيّة التي تفصلها عن الآخرين، لأنَّ العمل في سبيل اللّه ليس مهنةً تدرُّ الأرباح، بل هي رسالة ترتفع بالإنسان في حياته الفرديّة والاجتماعيّة إلى مستوى النبوّات السائرة أبداً في طريق اللّه.





الفقراء القاعدة للدّعوات التغييريّة

وهناك ناحية أساسيّة تستوقفنا في هذا المجال، وهي أنَّ الفقراء يمثّلون القاعدة الجاهزة للدَّعوات التغييرية في الحياة.

ـ **أولاً:** لأنَّ تلك الدَّعوات قد انطلقت من موقع الحاجة إلى مواجهة الظلم والطغيان والانحراف عن خطّ اللّه في الحياة، بالرسالة التي تعمل على إقامة العدل في الأرض وحلّ مشاكل الإنسان المتنوّعة، وهذا ما يهدف إليه الضعفاء والفقراء الذين يبحثون عن الحركة التي تنقذهم من ضعفهم وفقرهم، الأمر الذي يجعلهم الأتباع الطبيعيّين للرسالة.. وهذا هو ما نلاحظه في الرسالات السَّماوية والدعوات الإصلاحيّة التي بدأت المسيرة بهذه الفئات، كما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿**وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ**﴾(هود:٢٧).

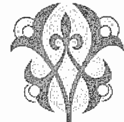
ـ **وثانياً:** إنَّ الفقراء والضعفاء لا يجدون شيئاً يخسرونه من خلال تحرّكهم مع الرسالة، لأنَّهم لا يملكون الامتيازات التي يملكها الآخرون ليخافوا من فقدانها عندما يُجاهدون، أو عندما تَنْتَصر الرسالة لتنفيذ برنامجها العملي في الحياة، بينما يتوقَّف

الأغنياء والأقوياء والمترفون، ليفكّروا طويلاً في ما تستهدفه الرسالة أو تؤدّي إليه من نتائج صعبة في مواقعهم العامّة والخاصة.

ـ **وثالثاً**: إنَّ الفئاتِ المضطّهدة في المجتمع تظلُّ مرتبطةً بالفطرة في صفائها ونقائها، ومنسجمةً مع روح البساطة والعفوية في الحياة، ما يجعلها أكثر انجذاباً للقيم الروحيّة الطيّبة التي تحملها الرسالات، وأقرب إلى معانيها البسيطة الصافية، بينما يبتعد الآخرون عن الفطرة من خلال ما تُحْدِثُه العلاقات المعقّدة، وما يُنتجه الترف من أطماع وشهوات وامتيازات تَحْجُب الإنسان عن رؤية النور في ينابيعه الأولى، وتجعل بينه وبين الحقيقة حاجزاً كبيراً يبتعد به عن الوضوح في تصوّر الأشياء.

وهذا ما يجب أن نواجهه في حياتنا الإسلامية العملية، بالانفتاح على قضايا النّاس ومشاكلهم من خلال الإسلام، بدلاً من الانفتاح عليها من خلال المبادىء الأخرى كما يفعل الآخرون.

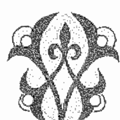




خطورة إخفاء نقاط الضَّعف

ربّما كان من الأمور التي نُواجهها في أعمالنا الشخصية والاجتماعية والرسالية، قضية إخفاء نقاط الضعف عن أنظار الآخرين والتنكّر للذين يثيرونها، باعتبار أنَّ ذلك يمسّ كرامة الفرد والمجتمع والرسالة، لأنَّنا نحاول دائماً أن نعطي لأنفسنا ولأعمالنا ومبادئنا صفة الكمال المطلق الذي لا يعتريه النقص ولا يطرأ عليه الضعف.. وقد أدّى هذا الاتجاه إلى إبقاء نقاط الضعف في مكانها دون إصلاح، بل ربَّما تطوّر بها الأمر لكي تتحوّل إلى شيء خطير يهدّد الوجود بفعل التنامي والتصاعد المستمرّ لها في الخفاء، وقد يقول بعض النّاس: إنَّ إظهار نقاط الضعف لدى الأمّة يُنتج سلبياتٍ كبيرةً في حياتها الفكرية والعملية، لأنَّه يُفقدها الثقة بنفسها من جهة، ويُغري بها الآخرين من جهة أخرى، الأمر الذي يجعلها عرضة للاهتزازِ والانهيار.

ولكنَّنا نجيب على ذلك، أنَّنا عندما نؤكِّد على خطورة إخفاء نقاط الضعف، لا ندعو إلى إظهارها بشكل استعراضيّ ساذج، بل كلّ ما نريده هو أن لا نتنكّر لها في عملية النموّ والتقدّم، لأنَّ ذلك يُوقعنا



في الخوف المرعب من الأخطاء بالمستوى الذي يحوّلها إلى عقدةٍ ذاتيةٍ تَشُلُّ فينا الشعور الأصيل بالثِّقة والقدرة على تجاوزها والتغلّب عليها، فيؤدّي ذلك إلى الهروب منها والانهزام أمامها بدلاً من مواجهتها بنقاط القوّة من الجهات الأخرى لنحوّلها إلى نقاط قوّة جديدة.. فتتأكّد الثقة من جديد وتتعمّق عندما نشعر أنَّ قوّتنا ليست في خطر، وأنَّها تنتقل من موقعٍ إلى موقع في عملية صُنْع الإنسان للتَّكامل وللفكرة القويَّة.

وهذا هو الذي واجهه النبيّ محمّد(ص) في بداية الدعوة في مرحلة الإيمان الأولى، وفي مرحلة الجهاد والصراع.

فقد استسلم بعض المؤمنين ـ وهو عمّار بن ياسر ـ لنقاط الضعف الموجودة في نفسه، فنطق بكلمة الكفر تحت تأثير التعذيب الشديد والإكراه الشرس من قريش.. وجاء إلى رسول اللّه وهو يشعر بالاهتزاز وقال له النبيّ(ص): «لقد أنزل اللّه فيك قرآناً فإن عادوا فعُد..» وذلك قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾(النحل:١٠٦).

ويحدّثنا القرآن الكريم عن اتّخاذ الكافرين المؤمنين أولياء، وينهى المؤمنين عن ذلك.. ثُمَّ يستدرك ليلاحظ بأنَّ هناك ظروفاً قاسية قد يستسلم فيها المؤمنون للضغط والإكراه فأباح لهم ذلك على أساس التقيّة.

إنَّنا نجد هناك تأكيداً لوجود نقاط ضعفٍ في سلوك المؤمنين في حالات الشدّة، لكنّها ليست مميتة، فأراد اللّه أن يُعطي الإنسان

الفرصة الطبيعية للانسجام معها من أجل أن لا يقع في حرجٍ يُبعده عن السَّير الطبيعي للأشياء كما حصل في بدايات الإيمان، لأنَّ مثل ذلك لا يعطِّل المسيرة ولا يَشُلُّ الحركة، بل يترك لها الفرصة لتستريح وتتنفَّس في جوٍّ بعيدٍ عن الضغط لتبدأ الرحلة من جديد، لتقوى وتشتدّ، فتستقيم لها الإرادة، ويمتدُّ بها الإيمان، وتتّجه أهدافها، إلى التضحية في نهاية المطاف، كما حدث للكثيرين من المسلمين ومنهم عمّار بن ياسر صاحب التجربة الأولى في الإكراه.



نقاط الضّعف الطبيعيّة لم تمنع من الانتصار

ونلتقي بنقاط الضّعف الطبيعيّة من خلال المرحلة في معركة بدر.. فقد حدّثنا القرآن الكريم عن فريقٍ من المؤمنين الذين يعترف القرآن بإيمانهم.. كيف كان استقبالهم لدعوة النبيّ في الخروج لقتال قريش.

﴿كَمَا أخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإنَّ فَرِيقَاً مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُون * يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأنَّمَا يُسَاقُونَ إلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُون﴾(الأنفال: ٥ ـ ٦).

ثم يقول سبحانه:

﴿وإذْ يَعِدُكُم اللَّهُ إحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِين * لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبْطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ المُجْرِمُون﴾(الأنفال: ٧ ـ ٨).

ويقول أيضاً:

﴿إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُم فَاسْتَجَابَ لَكُم إنِّي مُمِدُّكُمْ بِألْفٍ مِنَ

الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(الأنفال:٩).

وفي موضع آخر من سورة الأنفال يقول سبحانه:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيم * لَوْلا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُم فِيمَا أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيْم﴾(الأنفال:٦٧ ـ ٦٨).

إنَّنا نلاحظ الجوَّ المملوء بنقاط الضّعف، سواء قبل المعركة من حيث الإحساس بالضّعف الشّديد الذي يُشعر المسلمين بحبّ الحياة ولو على حساب الرسالة، والخوف من الأعداء إلى حدٍّ الاستغاثة، ثُمَّ الموقف من الأسرى والاحتفاظ بهم للحصول على الفداء منهم لمواجهة الوضع المادّي السيّء للمسلمين، مع أنَّ المصلحة تقتضي تَصْفِيَتَهم انطلاقاً من إضعاف المشركين بالتخلّص من كلّ العناصر القويّة فيهم.

ولكن هذه النقاط لم تمنع من الانتصار عندما انطلق المسلمون ليحوّلوها إلى نقاط قوّة من خلال تأييد اللّه لهم وتثبيته لمواقفهم وتوجيههم نحو اختيار الحلّ الأفضل لمشاكل العمل والجهاد.



مخاطر ربط العمل بالشخص القائد

إنَّنا نلاحظ وجود ذهنيّة خطرة على مسار العمل الإسلامي، وهي الذهنيّة التي تَرْبِطُ العمل بالشخص العظيم القائد، وتعتبر أنَّ غيابه يمثّل غياب الفرصة الوحيدة للنجاح، وقد يقودها ذلك إلى اليأس، أو يدفعها إلى التراجع عن الخطّ، ولكنَّ اللّه سبحانه لا يريد لنا أن نستسلم لهذا اللَّون من التفكير، لأنَّ قضيّة الحياة هي قضيّة الرسالة التي تمتدّ في جهادها وحركتها فتصنع الرجال وتُحدّد المواقف من خلال تحديد الخطوط والأهداف.. أمّا الرسول، فهو المرحلة الكبيرة في ولادة الرسالة وحركتها الأولى وتثبيت قواعدها وتأصيل مفاهيمها وتوضيحها، فهو الذي أطلق الدعوة وحدَّد المسار، ودفع الأمّة إلى الامتداد فيه على ضوء الهدف الكبير.. وتنوّعت التجارب في حياته عبر المواقف المختلفة.. ولكنَّه بشرٌ يموت كما يموت البشر، وتبقى الرسالة حيّة من بعده، لأنَّها رسالة اللّه للحياة ليحملها من بعده الرساليون من خلفائه وأتباعه.. وهذا هو ما نستوحيه من قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإِنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُم وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي**

اللَّهُ الشَّاكِرِين﴾(آل عمران: ١٤٤).

فإذا كانت القضية مع النبيّ في هذا المستوى، فكيف تكون مع الآخرين الذين يتسلّمون مركز القيادة في مرحلة من مراحل العمل، سواء كانت على أساس العلم أو على أساس الحركة. إنَّ على الأمّة في مثل هذه الحال أن تؤمن برسالتها وتثق بنفسها فتبحث عن القيادة الجديدة إذا لم تكن بارزةً على السطح، وترتبط بها إذا كانت موجودة في مستوى الثّقة، أو تعمل على صُنْع القيادة في داخلها لتستمرّ الرسالة في مسيرتها الصاعدة نحو الأفضل.

وفي هذا الاتجاه، نشعر أنَّ علينا تفريغ الذهنية الإسلامية من هذه المشاعر العاطفيّة حتى في ما اعتدناه من كلمات الرثاء للعلماء والعظماء المشتملة على المبالغات الضخمة التي توحي بأنَّ العلم قد مات ولن تقوم له قائمة بعد الفقيد إذا كان عالماً، وأنَّ الحياة سوف تنهار وتنتهي بعد القائد الذي انتقل إلى جوار ربّه، وأنَّ الكون سيتوقّف عن الامتداد والفلكَ عن الدوران.

إنَّ البعض قد يعتبر هذا الأسلوب في الرثاء أسلوباً وجدانيّاً لا ضَرَرَ منه ما دام الشَّرع لا يتنكّر للمبالغة إذا كانت في طريق التقييم لا في مجال الإخبار لتكون كذباً إذا خالفت الواقع، ولكنَّنا نجد في مثل هذا الأسلوب طريقةً خطرةً في تربية الذهنيّة الإسلاميّة على المفهوم الذي يربط العمل بالشخص ويربط الحركة بالمرحلة الزمنيّة التي يعيشها هذا الفرد في حياة العمل، فلا يثق بوجود أشخاص آخرين يمكنهم أن يُكْمِلوا المسيرة ويقودوا العمل

من جديد.

إنَّنا نستوحي من القرآن الكريم خطّاً بعيداً عن هذا الاتجاه، فإنَّنا نراه يتحدّث عن موت النبيّ بأسلوبٍ بسيطٍ جداً لا أثَرَ فيه للمبالغة ولا لليأس في المستقبل.

﴿**إنَّكَ مَيِّت وَإنَّهُمْ مَيِّتُون**﴾(الزمر:٣٠).

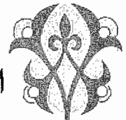
﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفَإنْ مِتَّ فَهُم الخَالِدُون**﴾(الأنبياء:٣٤).

﴿**مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبَا أحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّين**﴾(الأحزاب:٤٠).

وهناك نقطةٌ حيويّة جداً في هذا الاتجاه، فقد درجنا في تقييمنا للانتصارات الرسالية أو العسكرية على ربطها بالشخص دون أن نلتفت إلى القاعدة التي ساهمت في صُنْع النصر، فنتحدّث بأنَّه هو الذي فتح، وهو الذي هدى، وهو الذي انتصر، أمّا الآخرون فلا قيمةَ لهم ولا حديثَ عنهم إلاَّ من خلاله.

إنَّنا نحتاج إلى عدم إغفال القاعدة التي تتحرّك مع القيادة وتنسجم مع خُطَطِها وأهدافِها، لأنَّها استطاعت بجهادها وإخلاصها وتعاونها مع قيادتها أن تحقّق الانتصارات والإنجازات، فإنَّ ذلك يضع الصورة في مكانها الطبيعي ويُحقّق لنا هدفين عمليّين:

١ ـ التخلُّص من عبادة الشخصيّة في المسار الطويل، لأنَّ اعتبار



الشـخص كلّ شيء في العمل من دون ملاحظةٍ لرفاق الطريق، يؤدّي إلى تجميع الطاقات في ذاته بعيداً عن حساب طاقات الآخرين، ما يجعلهم مجرّد آلات تتحرّك بدون إرادةِ تفكير.

٢ ـ الإيحاء للقاعدةِ دائماً بأنّ طاقاتها المتحرّكة تُعتبر إحدى الأسُس الكبيرة للعمل والانتصار، مضافاً إلى الأساس الكبير المُتَمثّل في حكمة القيادة في تخطيطها الفكريّ والعمليّ، وهذا ما يجعلها تعيش المسؤوليّة من زاوية الشّعور بقيمة الذّات، والشعور بالقضيّة، حيث لا تتحرّك الذّات بعيداً عن القضية، بل تُحقّق لها الغنى الكبير.

ولعلّ هذا هو الذي نتمثّله في الآيات القرآنية التي تحدّثت عن رسول الله والذين معه في قوله تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه وَالذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلَى الكُفّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُم فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُم فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُم فِي الإنْجِيل كَزَرْعٍ أخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّار**﴾(الفتح:٢٩).

والآيات التي تحدّثت عن الذين هاجروا وجاهدوا والذين آووا ونصروا في قوله تعالى: ﴿**إنَّ الذينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأمْوَالِهِم وَأنْفُسِهِم فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُم أولِيَاءُ بَعض**﴾(الأنفال:٧٢).. ﴿**وَالَّذِين آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّه وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ**

الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾(الأنفال:٧٤).

لتوحي لنا بأنَّ النتائج كانت مُنْطَلِقَةً من قيادة النبيّ وجُهْد هؤلاء، فلم يتحوّلوا إلى أصفارٍ في المعركة، بل كانوا يُمثّلون أرقاماً حيّة في حركة العمل.

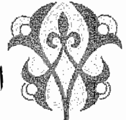
﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾(المدثّر:١ـ٣).

﴿فاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾(الحجر:٩٤).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمّل:٥).

إنّ هذه الآيات وغيرها تربطنا بفكرةٍ أساسية في حركة الدعوة في الحياة، وهي أن يتحرّك الداعية من موقع الدخول في حياة النّاس على أساس الدعوة والإنذار، ليفسح للدعوةِ مجال القوّة أمام التيارات الأخرى، وليتفادى ـ على ضوء ذلك ـ كلَّ نقاطِ الضعف، وبذلك يتحوّل كلُّ داعية إلى عنصرٍ مسؤول يحمل على كتفيه عِبْءَ الرسالة ويتقدّم إلى حلبة الصراع من خلال مسؤوليّته من دون أن يُخفّفَ ضعفُ الآخرين من قوّة اندفاعه، أو تُشارك قوّتهم في إضعاف موقفه، لأنّه يؤمن بفعل القوّة المنطلقة من عناصرها الذاتيّة، لا من ضعفِ الآخرين أو قوّتهم، وذلك هو السبيل الطبيعي للتقدّم والتكامل.

إنّنا نريد إثارة هذا الموضوع في أجواء ما نستوحيه من هذه الآيات التي تُحرّك الإنسان الداعية نحو العمل على أساس العنصر الذاتي النابع من المسؤوليّة الرساليّة، لأنَّ هناك فكرة يعيشها



الكثيرون من الدعاة، وهي استيحاء الشعور بالقوّة من ضَعْفِ الآخرين، فنحن نرتاح كثيراً إذا ضَعُفَت هذه القوّة المنحرفة والكافرة، ونحمل الهمّ الكبير إذا تصاعدت قوّة هذه أو تلك في اتجاه الحكم والحياة.. إنّه الخطأ الكبير والضَعْفُ السّاحق أن تستمدَّ قوّتك من ضعفِ الآخرين، أو تَفْقِدَ قوّتك أمام قوّتهم، لأنَّ صاحب الرسالة هو الذي يتحرّك في طريق صنع القوّة الذاتيّة التي تواجه القوى الأخرى لتُضعفها ولتستفيد من الضعف الطبيعيِّ لها في سبيل بناء قوّةٍ جديدةٍ على أنقاض تلك القوّة، لا أن يدفعها ذلك إلى مزيدٍ من الكسلِ والاسترخاء.



مع المنكرين للنبوّة

كانت النبوّات ـ في كلّ عهد انطلقت فيه ـ موضع جدل ونقاش في مجتمعها الذي تعيش فيه، باعتبارها حَدَثاً غير عادي في حياة الناس، لأنّها ليست مجرّد دعوة تغييريّة تتحرّك على أساس بشريّ يخضع لما يخضع له البشر ـ عادة ـ من إمكانات وطاقات، وقوّة وضعف.. بل هي دعوة تتميّز بارتباطها بما وراء هذا العالم، من خلال الوحي الذي هو ظاهرة غير عادية لأنّه يمثّل الاتصال غير المنظور بالقِوى غير المنظورة لأنّها ليست من عالمنا هذا، بل هي من عالم آخر يختلف عنّا في شكله وفي طبيعته. وهي ـ في هذا المجال ـ لا تخضع لأيّ ضعف في الصدق والصواب والانسجام مع المصلحة الأساسيّة للحياة لأنّها من اللّه العالِم بما يُصلحهم ويُفسدهم.

وقد شاركت هذه المِيزة التي تتميَّز بها النبوّات عن الدعوات الأخرى في إثارة عدّة جوانب من علامات الاستفهام التي اتخذت لنفسها طابعاً جدليّاً عنيفاً، لم تقتصر آثاره على الكلمات التي تُثار في هذا السبيل، بل امتدّت إلى المواقف العمليّة التي تحوّلت إلى

رفض حاسم للأشخاص الذين تتجسَّد فيهم فكرة النبوّة وتتحرّك معهم.

ففي البداية، كان السؤال الذي أُثير مع أكثر الأنبياء، حول شخصيّة النبيّ من خلال تصوّر الناس لِمَا يجب أن تكون عليه هذه الشخصيّة.. فإذا كانت النبوّة حَدَثاً غيرَ عادي فيجب أن تتجسَّد في شخص غير عاديّ.. ولهذا فإنَّ من الضروري أن لا يكون النبيّ بشراً ما دامت النبوّة مرتبطة بغير عَالَم البشر.. وما دامت طرق الاتصال غير بشريّة.

ومن هنا وُلدت فكرة رفض تصديق الأنبياء، لأنَّهم بشرٌ مثلُهم يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.. فلا ينسجم ذلك مع التصوّر العام للنبيّ الذي يجب أن يكون مَلَكاً من السماء لِيَصْلُحَ لحمل رسالة السماء.

وينطلقُ ـ بعد ذلك ـ سؤالٌ ثانٍ.. في هذا المجال، فقد نتقبَّل فكرة النبيّ، البشر، ولكن لا بدَّ أن يكون إنساناً غير عادي.. يتميَّز بقوى خارقة تحمل ظلال الألوهيّة في قدراتها، وإن لم تكن لها هذه الصفة.. لأنّ اتصالها المباشر باللّه، وحَمْلَها الرسالة منه بطريق الوحي يفرض ذلك كلّه.

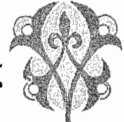
وفي ضوء ذلك.. كانت علامات الاستفهام تتكاثر وتتنوَّع حول الأنبياء الذين لا يتميَّزون عن الإنسان العاديّ بشيء في قدراتهم وأوضاعهم العملية في الحياة.. فلا نجدهم يستجيبون لأيّ اقتراح من الاقتراحات التي تُطلب منهم، في القيام ببعض الأعمال، أو

إيجاد بعض الظواهر الخارقة في الحياة.

أمّا رسالة الإسلام.. فقد جابهت - إلى جانب علامات الاستفهام هذه - في شخصيّة النبيّ محمّد(ص) علامات استفهام من نوع آخر، كانت تتحدّى ما جاء به، مما لم تستطع أن تجابهه بالمنطق والمعرفة الواعية الهادئة.. بأنّه سِحْرٌ، ولهذا أعطت النبيّ صفة السَّاحر.. وبأنّه شِعْرٌ يتخذ لنفسه صفة الشاعر، يجمع أساطير الأولين التي اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً.. وتحوّلت القضية في تفاعلٍ مرير حاقد إلى ما يشبه التشنّجات الانفعالية.. فكان الوصف بالجنون أحد الأشياء التي تعرَّضت لها شخصيّة الرسالة في شخص الرسول(ص).

ونحن لا ندّعي اختصاص هذه الصفات بنبيّ الإسلام(ص)، لأنَّ القرآن قد أشار في بعض الآيات إلى أنَّ الأنبياء بشكل عام قد حُوربوا باتهامهم بالجنون، كما جاء في قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَو مَجْنُونٌ**﴾(الذّاريات:٥٢). ولكنَّنا نقول إنَّ هذه الأمور كانت بارزة في موقف أعداء الإسلام من الرسول(ص).

وقد واجه الرسول هذا كلّه، بأسلوب رسالي هادىء، ينطلق من الثقة العميقة بنفسه وبرسالاته.. ومن الفهم الواعي للظروف وللدوافع وللتصوّرات التي شاركت في ولادة علامات الاستفهام الرافضة التي واجهت رسالته وأساءت إلى شخصه، فقد كان للتصوّر المنحرف لمعنى النبوّة وللعوامل الاجتماعية والذاتيّة التي



كانت تقود خطى المعاندين نحو معاندة الحقّ الذي أطلقه، ولغير ذلك، الأثرُ الكبيرُ في هذا كلّه.

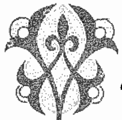
وعلى هُدى ذلك بدأ الحوار معهم، من أجل أن يقودهم إلى تصحيح المفهوم الخاطىء الذي يحملونه عن النبوّة ودورها في الحياة وعن شخصيّة النبيّ وطاقاته، من خلال ذلك،.. ثم يعمل.. بنفس الهدوء.. في تصحيح أفكارهم الخاطئة عن طبيعة رسالته وعن صفة القرآن، وعن الصفات التي يُلصقونها بشخصه، مما شاركت الانفعالات المتباينة التي ولّدها الجوّ المحموم للمعارضة.. في إيجاده وتحريكه نحو هذا الاتجاه.

أمّا الفكرة الأولى التي تتحدّث عن العلاقة بين النبوّة والبشريّة. فقد أدارها النبيّ محمّد(ص) ـ كما صوّرها الله في القرآن الكريم ـ في أسلوبين:

الأسلوب الأول: محاولة عرض الفكرة من خلال تاريخ النبوّات، وكيف كان الحوار يدور في حياة الأنبياء السابقين مع خصوم الرسالات.

الأسلوب الثاني: محاولة إدارة الحوار ـ بشكل مستقل ـ حول الفكرة التي تتحدّى النبوّة من خلال هذا التصوّر المنحرف في شخصه.

ونواجه ـ في الأسلوب الأول ـ الآيات التالية التي تتحدّث عن الأنبياء السابقين الذين كانوا محل احترام لدى المجتمع العربي الذي وُلِدَت فيه الرسالة.. ولا مانع من فرضيّة أنّهم كانوا يؤمنون



بهم كأنبياء، فقد تحدّثت هذه الآيات عن رفض الأمم السابقة، لهؤلاء الأنبياء من خلال صفة البشريّة التي كانت لا تنسجم مع صفة النبوّة في زعمهم.. ولكن النبوّة كانت تفرض نفسها في نهاية المطاف من خلال مواقفها ومعاجزها الخارقة للعادة التي قام بها أولئك الأنبياء.. ممّا يوجب تحطيم المفهوم الخاطىء الذي كانوا يحملونه في أفكارهم.

ففي حديث القرآن عن نوح وقومه يقول اللّه تعالى:

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾(هود:٢٧ ـ ٢٨).

وفي آيةٍ أخرى.. تتحدّثُ عن أسلوب نوح ـ في حواره معهم ـ حول تجريد مفهوم النبوّة في واقعها الأصيل من فكرة القُدُرات الخارقة التي يتمتّع بها النبيّ، أو صفة الملائكيّة غير البشرية:

﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُم إِنِّي مَلَك...﴾(الأنعام:٥٠).

وتُصَرِّحُ بعض الآيات بفكرةِ النبيّ ـ المَلَك التي كانوا يزعمونها ـ كأساسٍ لرفض دعوته.

﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ

أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُم وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبائِنَا الأَوَّلِينَ﴾(المؤمنون: ٢٤).

وهكذا يَطرح القرآن قصّة نوح وقومه، ليؤكّد في أكثر من آيةٍ، من خلال الأدلّة التي انطَلَقَتْ فيها رسالتُه، خطأَ الفكرة التي كان يزعمها قومه، من التَّنافي بين البشرية والرسالة.

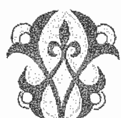
وتَمْتَدُّ القضية إلى بقيّة الأنبياء، كما حدّثنا بذلك، عن قصة هودٍ وصالحٍ.. فقد جاء قوله تعالى عن قوم هود: **﴿وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِّي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُم يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾**(المؤمنون: ٣).

وقال تعالى في قِصَّةِ صالحٍ وقومِهِ:

﴿وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الكَاذِبِينَ﴾(الشعراء:١٨٦).

ويُلخّصُ القرآنُ الكريم الجانب التاريخيّ لرفض فكرة التَّنافي بين البشريّة والنبوّة، ليَشْمُل تاريخ الأنبياء السابقين، فيُقرّر أنّهم كانوا ـ بأجمعهم ـ بشراً. لهم كلّ صفات البشر الجسدية، في كلِّ ما يقتضيه ذلك من ضعفٍ وقوّة.. وذلك هو قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(الأنبياء:٧ ـ ٨).



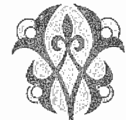
أما الأسلوب الثاني: فتُواجِهُنا فيه الآيات الكريمة التي تتحدّث عن رفض الكفّار لرسالة النبيّ من خلال البشريّة والطاقات العاديَّة:

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(الفرقان:٧ ـ ٩).

ويُتابع القرآن الكريم، الجانب الثاني من الحوار، في نفس السّورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُم لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾(الفرقان:٢٠).

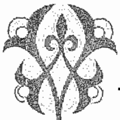
ونلتقي ـ في هذا الاتجاه ـ بالآيات الكريمة التي تعرضُ الخطأ وتُحاول أن تُناقشَهُ:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلاَّ بَشَراً رَسُولاً * قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٠ ـ ٩٥).



فنحن نُلاحظ ـ في هذه الآيات ـ أنَّهم واجهوا الرَّسول بهذه المقترحات كأساسٍ لإثباتِ رسالته، من حيث أنّها تُمثّل ما يَتَمتّع به من القُدُرات غير العادية.. وكان الجواب الهادىء البسيط منطلقاً من تأكيدِ فكرة البشريّة التي لا تلتقي مع كلّ هذا الحَشْدِ من الاقتراحات، واعتبار الرِّسالة ـ بعد ذلك ـ هي الميزةَ الوحيدة التي تُميّزه عن الآخرين، ممّا هو غير عاديّ في حياته.. ثم تُضيف الآية تقرير التصوُّر الخاطىء في تاريخ الشعوب التي عايشت النبوّات ـ الذي يرفض فكرة الرَّسول ـ البشر، ممّا شارك في مَنْع الناس من الإيمان.. ثم وُضعت الفكرة في إطارها الطبيعي من جانبين:

الجانب الأول: هو استبعاد هذه الفكرة الخاطئة، باعتبار أنّها لا تستند إلى أيّ شيء أساسيّ، والتأكيد على أنَّ الأمر الطبيعي هو أن يكون بشراً.. كشرطٍ ضروري لتحقيق الانسجام بين الرَّسول وأتباعه لتكون العلاقة بينهما علاقة طبيعيَّة، لأنَّ مهمّته ليست البلاغ فحسب.. بل التجسيد الحيّ للفكرة.. حتى يكون عمله تجسيداً حيّاً للرسالة، إذ لو لم يكن بشراً بل كان مَلَكاً، أو كان في مستوى أعلى من المستوى البشري في طاقاته، لأمكَنَ أن لا يَعْتَبِرَ النَّاس التطبيق العملي الذي كان يُمارسه ـ دليلاً على واقعيَّة الرِّسالة، وإمكانية تطبيقها من قِبَل الآخرين. وهذا ما عبّر عنه القرآن الكريم بصورة واضحة، حيث اعتبر أنَّ طبيعة الانسجام بين الرَّسول وأتباعه توجِبُ أن يُرسل اللّه إلى الأرض مَلَكاً رسولاً، فيما إذا كان المجتمع الذي أُرْسِلَ إليه في الأرض مجتمعَ ملائكة.



الجانب الثاني: التَّركيز على خطأ الفكرة، من زاوية أخرى ـ وهي أنَّنا لا نَشْعُر بضرورة حصول الرَّسول على قوة غير عاديّة لأنَّ مهمّته ليست ـ هي ـ تغيير النِّظام المألوف، للكون، أو القيام بحركات استعراضيّة خارقة للعادة، لِيُلفتَ الأنظار إليه أو ليحصل على زهو العظمة التي تخشع لها القلوب والأبصار، ليحتاج إلى تلك القوة في تحقيق ذلك، بل مُهِمّته الوحيدة هي الرِّسالة وشرطها الوحيد.. أن يتمتع بالطاقات التي تؤهّله لتلقّي تلك الرسالة بالوحي، ولحمل تلك الرسالة وإبلاغها للناس.. ثم القدرة العمليّة على تطبيقها وقيادة الناس لذلك.. أمّا في غير ذلك فإنَّ القضيّة تخضع لتخطيط اللّه له، من حيث ما يملك من معلومات يمنحها اللّه، أو من حيث المعجزة التي يُمكِّنَهُ اللّه منها.

وقد نلمس وضوح هذه الفكرة في كثيرٍ من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الأهداف التي انطلقت من أجلها الرِّسالات مما يجعل للمهَّمة الرِّسالية إطارها المحدود، الذي تُلخّصه كلمتان: الدعوة والتشريع، وتغيير الواقع من خلال ذلك ليستطيع الناس من خلال ذلك أن يمارسوا حياتهم بسلام يرتكز على العدالة والرحمة والتعاون والخير الكبير.

فقد جاء في قوله تعالى، بعض الملامح العامَّة لدعوة الأنبياء بشكلٍ عام:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا

اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُم فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(البقرة:٢١٣).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥).

وقال تعالى:ـ في حديثه عن رسالة النبيّ محمّد(ص) وطبيعتها وأهدافها العامة ـ.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ..﴾(الجمعة:٢).

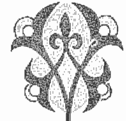
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيْماً﴾(النساء:١٠٥).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُم عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم﴾(الأعراف:١٥٧).

فقد نلاحظ ـ بوضوح تحديد المهمّات الرِّسالية للأنبياء في وضع الخطوط العامَّة للفكر والتشريع من أجل أن ينطلق الحُكْمُ على أساس الحقّ، وميزان العدل، وفي رعاية النّاس بما يُخَفِّف

عنهم أغلالهم وأثقالهم التي تُرهِقُهُم وتُعطِّل مسيرتهم في بناء الحياة على قاعدة ثابتة، وفي تركيز الأسُس التي تلتقي عليها مصالح الناس وأفكارهم، من أجل إخضاع الاختلافات إلى الحُكْمِ العَدْلِ الذي لا ينحرف ولا يجور. وبالتالي، إشاعة السلام القائم على الرَّحمة والعدل.. وفي ضوء ذلك، لا نجد أمامنا - في هذا الإطار - أيّ ضرورة.. تفرض اتِّصاف النبي بالقُدُرات غير العاديَّة التي يستطيع - معها - أن يصنع كلّ شيءٍ خارقٍ للعادة في أيّ وقت وفي أيّة مناسبة... بل كلّ ما هناك، أن يملك النبيّ القدرة على حمل الرسالة وإبلاغها وتطبيقها بالحكمة والمرونة والقوّة.. في كلّ ما يحتاج إليه الداعية والمُشَرِّع والحاكم، مما يتعلَّق بدعوته وشريعته وحكمه.. وبذلك يبطل التَصَوُّر المنحرف الذي كان يربط بين النُّبُوَّة وبين القوّة الخارقة التي تصنع ما تشاء، بلا حدود.





النبوّة والتفوّق المطلَق

وقد يُمكن لنا في هذا المجال أن نتحفّظ فيما يفيض فيه الكثيرون من، علماء الكلام، عندما يتحدّثون عن صفات النبيّ - أيّ نبيٍّ كان - فيوجبون له التفوّق في كلِّ علم، وفي كلِّ صفة ذاتيّة على أساس القاعدة العقليّة المعروفة لديهم، وهي، قُبْحُ قيادة المفضول للفاضل... فإذا لم يكن النبيّ في مستوى القمّة في كلِّ شيء، لم يَصلُح لمركز القيادة الحياتيّة للنّاس.

وقد يتطرّف البعضُ فيوجِبُ أنْ يكونَ النبيّ أجملَ الناس، وأشجعهم، وأقواهم في عضلاته إلى غير ذلك من الصِّفات الجسميّة التي لا ترتبط بالنبوّة ولا بالقيادة من قريب ولا من بعيد.. فإنَّنا نُلاحظ في أوضاع القيادات في العالم.. حتى العسكرية منها.. أنَّ القائد لا يفرض فيه أن يكون أكثر شجاعة من جنوده، فربَّما يكون الكثيرون من جنوده أشجع منه، لأنّ دوره الأساسي - كقائد - ليس هو خوض المعركة، بل قيادتها التي تتمثّل في الفكر العسكريّ القياديّ الذي يعرف كيف يُخَطِّطُ للمعركة وكيف يواجه التطبيق العملي للخطط المرسومة.

وهكذا نجد القضيَّة في كلِّ جانب من الجوانب الحياتية التي لا تتطلَّبُ في القيادة إلاّ أن تكون في مركز التفوّق والكمال في القطاع الذي تتولّى قيادته.

إنَّنا نسجّل تحفُّظَنا الشديد حول هذا كلّه.. لأنَّ دور النبيّ، لم يكن هو دور المُؤَسِّس للعلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة وغيرها، ولم تكن مُهِمَّته هي مهمّة المعلّم للألسنِ واللغات، بحيث يجب أن يكون مُلمّاً بجميع العلوم، وبجميع اللُّغات، بل المهمّة الأساسيّة كما حدّدها القرآن الكريم، في الآيات المتقدّمة، هي الإرشاد والإبلاغ والإنذار وتعليم الناس الكتابَ والحكمة، وقيادتهم إلى تطبيق ذلك كلّه على حياتهم، ليَخْرُج النَّاس من الظُّلمات إلى النور وَيَهْدِيهم إلى صراط العزيز الحميد.

ولعلّنا نفهم ذلك كلّه من التأكيد على جانب البشرية، الموصولة بالوحي، والتركيز على الرَّفض المُطلق لعلم الأنبياء بالغيب إلى المستوى الذي لا يستطيع النبيّ أن يدفع عن نفسه السُّوء، أو يجلب لها الخير الذي يخفيه المستقبل، كما في قوله تعالى:

﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٨٨).

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾(الأحقاف:٩).

ولكن اللَّه قد يَخُصّ نبيَّه ببعض المعلومات الخاصَّة، كما تُشيرُ

إلى ذلك الآية الكريمة: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾(الجنّ:٢٦ ـ ٢٧).

وتتحدّثُ بعض الآيات عن موضوع العلم باللُّغات، لِتُشير إلى أنَّ ذلك واردٌ بالنسبة إلى النبيّ، وذلك في قضيّة اتِّهام الكفَّار للنبيّ، بأنَّ هناك إنساناً يقوم بتعليمه، فيجيء الردُّ القرآني عليها حاسماً، على أساس أنَّ هذا الشخص الذي يَنْسِبون إليه تعليم النبيّ من الأعجميين، بينما نجد القرآن عربيّاً مبيناً.. فكيف يمكن أن تصحَّ التُّهمة.. ومن الطبيعي أنَّ هذا الردَّ لا يصلح لإفحام الكفّار إلاَّ إذا كان النبيّ لا يعلم لغة هذا الأعجمي.. لأنَّه ـ في هذه الحالة ـ لا يستطيع أن يفهم منه، أو يقوم بمهمّة الترجمة لما يمليه عليه ذلك من أحاديث التوراة والإنجيل وغيرهما.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(النحل:١٠٣).

إنَّنا نتحفّظ في ذلك، في إطار الفكرة التي تربط النبوّة بالتفوّق المطلق في كلّ شيء، لأنَّ النبوّة لا تقتضي ذلك الذي يقرّرونه كلّه.. ولكنَّنا لا نمانع في أن يكون للنبيّ أكثر الصفات المذكورة من ناحية واقعيّة موضوعيّة.. كميزة شخصيّة خاصَّة، لا كميزة نبويّة حتميّة في حساب الحُكْم العقلي القاطع ـ كما يقولون.



الحوار في موضوع القرآن

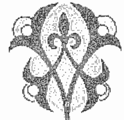
هل القرآن من كلام اللَّه الذي أوحاه إلى محمّد(ص) ليكون دليلاً لنبوّته وحجّة على الناس؟

أو من كلام محمّد الذي أنشأه من نفسه، أو أخذه من أحاديث الأولين، وتعلّمه من بعض أهل الكتاب؟

كان هذا السؤال يدور في أحاديث المجتمع العربي الذي انطلق الإسلام فيه كموضوع يُفَكِّرون فيه، ليحصلوا على القناعة من خلال الأجوبة المطروحة أو كاتِّهام يفتعلونه، ليكون التحدّي الكبير للنبي في دعوته باعتبار أنَّ القرآن يُجسّد قوّة الدعوة الكبيرة في مجال إثبات الرسالة وامتدادها الحيوي في واقع الأمَّة وحركتها.

وكانت المواجهة الرسالية في مستوى الرسالة التي تريد أن تواجه التحدّي بالحوار الهادىء العميق الذي لا يريد أن يُفحم خصومه أو يُسكتهم، بل يحاول أن يقنعهم بصدقه، وبما يؤمن به، أو يُحَطِّم عنادهم بالصدمات الفكرية القوية ليبدأوا بالتفكير من خلال الحياد الفكري، لا من قاعدة المشاعر العدائية للعقيدة...

وقد تمثّلت هذه المواجهة في حوار العقيدة بأسلوبين:



الأسلوب الأول: التحدّي المضاد، الذي يطلب من الآخرين أن يجرّبوا مجاراته والإتيان بما يستطيعونه، من حيث الكميّة، ولو بسورة مِنْ مِثْلِه.. ولم يقتصر هذا الطلب على فئة معينه من الناس، بل امتدَّ إلى الجن والإنس جميعاً، من أدنى مستوى إلى أعلى مستوى ثقافي، منفردين أو متعاونين.. ثم ينطلق في أسلوب الواثق المطمئن ليدلّل على أنّهم لا يملكون القدرة على ذلك ولو اجتمعوا له، بكلٍّ ما عندهم من طاقات وإمكانات.

ولم ينقل التاريخ لنا أيّة تجربة جادّة أو ناجحة ـ في هذا المجال.. بالرغم من أنّ خصوم الإسلام كانوا يلجأون إلى أيّة محاولة يستطيعون من خلالها تسجيل موقف ناجح ـ أيّ موقف كان ـ ضدّ النبيّ ودعوته في كلّ حالة من حالات الصراع المرير الذي كانوا يخوضونه معه.. أمّا الفكرة التي انطلقت، في هذا التحدّي المضادّ، لاتهاماتهم وَشُبُهاتهم التي أثاروها ضدّ القرآن فقد ارتكزت على الأساس التالي:

وهو أنَّ القرآن، لو كان كلاماً بشريّاً، في أيّ درجة من الدرجات، فلا بدَّ من أن يلتقي ببعض المستويات الفكرية والثقافيّة في الحياة، ممَّا يجعل أمر الإتيان بمثله، أو بنموذج مشابهٍ سواءً أكان مساوياً له أم كان أعلى منه، شيئاً ممكناً، فإذا لم يتحقّق ذلك، ولم يستطع أحد مجابهته في ذلك كلّه، فستكون النتيجة مع الفكرة التي تُثْبِتُ أنَّه كلام اللّه الذي لا كلام مثله، أو فوقه.. وبهذا نعرف أنَّ الأسلوب هنا لم يَتَّجه إلى إسكات الخصم، بلا اتّجه إلى أن

يجعل من التحدّي طريقاً للإيمان بالفكرة الإسلاميّة المطروحة أمامهم، وهذا ما نستطيع أن نقرأه في الآيات التالية:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾(هود:١٣).

﴿وَإِن كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾(البقرة:٢٣ ـ ٢٤).

ويبلغ ذروة التحدّي في قوله تعالى:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(الإسراء:٨٨).

الأسلوب الثاني: الطريقة العقلية التحليلية التي تُحاكم الفكرة المضادّة، على أساس التفكير الذي يَطرح القضيّة أمامه في مناقشة تحليلية هادئة.. وقد أثار القرآن الكريم هذا الأسلوب في نقاطٍ ثلاث:

الأولى: الكَشْفُ عن تاريخ النبيّ الثقافي من عدّة جوانب:

١ ـ شخصيّته الثقافيّة، فلم يسبق له أن قرأ كتاباً، أو خطّه بيمينه، أو انتمى إلى مدرسة كما أشار القرآن إلى ذلك في خطابه

للنبيّ، ـ وهو يوحي له بنوعيّة الأسلوب الذي يديره معهم في هذا الموضوع ـ قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إذاً لارْتَابَ المُبْطِلُونَ**﴾(العنكبوت:٤٨).

وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾(الزّخرف:٥٢).

ولم يُحدّثنا تاريخ النبيّ، أنَّ أحداً من خصومه واجه هذه الآيات بالتكذيب أو بالإشارة إلى جانب يؤكّد فكرة القراءة والكتابة، إلاّ من بعض الافتراضات التي حدّثنا القرآن عنها دون أن تَستند إلى شيء.

٢ ـ ملاحظة تاريخ النبيّ في حياته مع قومه، قبل نزول القرآن، وذلك فيما يحدّثنا به قوله تعالى:

﴿**قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾(يونس:١٦).

فقد عاش النبيّ معهم مدّة أربعين سنة، قبل تكليفه بالرسالة، من دون أن تَبْدُرَ منه أيّة إشارة، ولو إلى آية واحدة، أو فكرة معيّنة من أفكاره، بل كانت حياته وأحاديثه، جاريةً بطريقة عادية، ليس فيها أيُّ شيء يُلفت النظر إلى مستقبل أمره من قريب أو من بعيد... وفي هذا دلالةٌ كبيرة، على أنَّ الرسالة لم تتحرّك في أفكارها ولا في قرآنها من موقع الإمكانات الذاتيّة التي تخضع

لطبيعة الأمور فإنَّ من الصعب، بل من المستحيل عادة، على أيّ إنسان يستقبل فكرةً تنبع من تخطيطه وتفكيره، أن يعيش الصَّمت المطلق في حياته اتجاهها، في أدوار تكاملها ونموّها في نفسه، فإنَّ سلوك الإنسان وأقواله، يُعْتَبَرُ انعكاساً ـ عفوياً ـ لأفكاره وآرائه في الحياة، بحيث تَصدر عنه، كما يصدر النور من الشمس، والماء من الينبوع من دون إرادة أو اختيار.

٣ ـ تاريخ البيئة التي نشأ فيها النبيّ وعاش،.. فإنَّ المجتمع العربي الذي كان البيئة الطبيعيّة للنبيّ محمّد(ص) لا يساعد على ولادة فكر في مستوى الفكر القرآني الذي يُجسّد عادةً ألواناً من الثقافة، تشمل كثيراً من شؤون المعرفة، كالتشريع والأخلاق والحديث عن أسرار الكون، والجوانب النفسيّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة بشكلٍ عام ممّا لم يكن وارداً في المستوى الثقافي الذي يُميّز ذلك المجتمع، كما نعرفه في تاريخ الجزيرة العربية التي كانت ثقافتها لا تتعدّى الجانب الأدبي.

ولعلّنا نلمح الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِم وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(الجمعة: ٢).

انطلاقاً من وصف أفراد البيئة المكيّة بالأميين وبالضلال المبين.

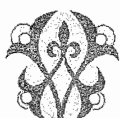
ولم يُعرَف للنبيّ(ص) بيئة ثقافية أخرى، في المدارس الثقافية

الموجودة في ذلك الوقت، فلم نجد هناك أيّ أثر لأيّة رحلة طويلة سافرها النبيّ إلى تلك المدارس، بل كلّ ما هناك ـ فيما يحدّثنا تاريخ السيرة ـ رحلتان تجاريتان، إلى بلاد الشام، لم يتجاوزا المرحلة التي تفرضها طبيعة الرحلة التجارية السريعة.. مع أنَّ النبيّ لم يصل فيها إلى المركز العلمي آنذاك بل توقَّف سفره إلى حدود (بُصرى) فيما تنقله لنا السيرة النبويّة الشريفة.

النقطة الثانية: في الأسلوب العقلي للحوار في هذا الموضوع، وهو أنَّ الفكرة التي كانت تنسب القرآن إلى غير اللّه، تؤكّد نسبته إلى إنسان غير عربي، ولم يُعْرَف عن النبيّ ـ فيما أشرنا إليه ـ أنَّه كان يعرف لغة غير اللغة العربية، فكيف يمكن أن يكون التعليم، وكيف يمكن أن تحصل الترجمة، ولو كان الكلام مُستمدّاً من ذلك الإنسان لكان الكلام غير عربي، كما قال اللَّه تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(النحل:١٠٣).

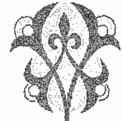
النقطة الثالثة: وهي أنَّ القرآن يمثّل وحدة فكرية تُمثّل التوافق والانسجام في كل ما أثاره من قضايا ومفاهيم، وما خطّط فيه من تشريع.. بينما تقتضي الفكرة التي تنسبه إلى النبيّ محمّد(ص) أن يحصل فيه التناقض والاختلاف، لأنَّه نزل متفرّقاً، في مواضع مختلفة، وأزمان متباعدة وظروف متباينة تختلف في طبيعتها ممّا يجعل الفكرة تختلف من وقت لآخر. أو توجب نسيان الإنسان في حالة ما يقرّره في حالةٍ أخرى وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة:



﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾ (النساء: ٨٢).

وهكذا نجد ـ في كل ما عرضناه من هذه الأساليب التي واجه بها النبيّ محمّد(ص) خصومه الذين كانوا يثيرون الشكوك إزاء نسبة القرآن إلى اللّه ـ الأسلوبَ الإسلاميَّ الذي يريد للحوار أن ينتهي إلى نتيجةٍ إيجابيّة في جانب المعرفة والقناعة بالفكرة من خلال الدليل والحجّة لا من خلال الأجواء العاطفيّة التي لا تستند إلى أساس متين مقبول.

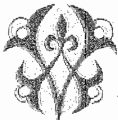




صفات النبيّ الشخصيّة..

وكانت التحدّيات الشخصيّة التي قام بها خصوم الدعوة الإسلامية.. في قمّة التحدّيات التي أرادوا منها تشويه صورة النبيّ في نظر الناس.. وقد حاولوا التفتيش في أذهانهم عن أيّة صفة كانت من الصفات التي تجعل منه إنساناً عادياً ككثير من النماذج الإنسانيّة الموجودة في المجتمع.. فكانت صفة الشاعر.. وكانت صفة السَّاحر، من بين الصفات التي توحي للآخرين أن يتّخذوا من كلامه نفس الموقف الذي يتّخذونه من الشعراء والكهّان.. مما يجرّده من أيّ نوع من أنواع القداسة أو الامتداد والشمول، ومن الدور القياديّ أو التغييريّ في حياة الأمة، ولم يقتصروا على ذلك في تشويه الصورة.. فكانت صفة الجنون التي واجهوه بها دون معنى، ودون أيّ مظاهرة تبرِّر ذلك أو تُقنع الآخرين بها، لولا الأجواء الانفعاليّة المحمومة التي كانت تُتابع الكلمات التي تُثار عندها دون تفكير، تماماً، كما ينطلق الصدى في الحياة.

قال تعالى:



﴿... وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ﴾(سبأ:٤٣).

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنهُم وَقَالَ الكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّاب﴾(ص:٤).

وواجه النبيّ ذلك كلّه.. بصفة النبيّ الذي لم تكن ذاته تمثّل شيئاً بالنسبة إليه إلاَّ بمقدار ارتباطها برسالته، ولذا فإنَّ حملة التشويه لا تُثير لديه أيَّ رد فعلٍ إلاَّ من خلال حاجة الرسالة إلى ما يحميها من التشويه الذي يُسيء إلى أثرها العمليّ في حياة الناس.. فدعاهم إلى أن يُوازنوا بين الشعر، من خلال القضايا التي يُثيرها الشعراء، والأجواء التي يعيشونها، والأساليب التي يتَّبعونها، وبين القرآن في قضاياه وأجوائه وأساليبه، ليروا أنَّه بعيد كلّ البعد عن الشعر وزناً.. وهكذا كان الأمر ـ في موضوع السِّحر والكهانة ـ فلم يكن القرآن كتاباً يَعتمد على خداع أبصار الناس وأفكارهم، أو النفاذ إلى غيب الماضي والمستقبل في قضاياهم الخاصَّة.. كما يفعل السَحَرَةُ والكهّانُ بل هو كتاب ينطلق إلى أفكار الناس وحياتهم على أساس الفكرة الواعية العميقة الواسعة، والكلمة الهادئة، والأسلوب المرن الحكيم، ليقتنعوا به من خلال مقوّمات القناعة لديهم.

قال تعالى:

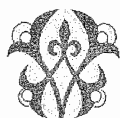
﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيم * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَولِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون * تَنْزِيلٌ مِن رَبِّ العَالَمِين﴾(الحاقّة: ٤٠ ـ ٤٣).

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾(يس:٦٩).

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾(الصّافات:٣٦ ـ ٣٧).

وتنقل لنا قصة السيرة النبوية الشريفة، الرفضَ العفويَّ الذي قابل به أحد كفار قريش، فكرة، أن يكون القرآن شعراً، أو حديثَ كَهانة.. وهو الوليد بن المغيرة الذي سمع شيئاً من القرآن وتأثّر به، فقالت قريش صَبَأ واللّه، الوليد، ولتصبون قريش كلّهم، فأوفدت إليه أبا جهل، يُثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله، ويطلب إليه أن يقول في القرآن قولاً ليعلم به قومه، إنّه كارهٌ له، قال: فماذا أقول، فواللّه ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، واللّه ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا، واللّه إنَّ لقوله لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه ليحطّم ما تحته، وإنّه ليعلو وما يُعلى. قال أبو جهل، واللّه لا يرضى قومك حتى تقول فيه، قال فدعني أُفكِّر فيه. فلمّا فكّر، قال: إنْ هذا إلاَّ سحرٌ يُؤثَر، أما رأيتموه يُفَرِّق بين الرجل وأهله ومواليه. وفي ذلك نزل القرآن الكريم ـ كما تقول الرواية:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ



وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾(المدّثّر: ١١ ـ ٢٥).

١ ـ وتَنقل لنا قصة السيرة النبويّة ـ كما في سيرة ابن هشام(١) ـ الحديث بشكل آخر ـ «أنّ الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سنّ فيهم، وقد حضر الموسم، فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حَضَرَ هذا الموسم، وإن وفود العرب سَتَقْدُمُ عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فَأَجمِعُوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضُكم بعضاً ويَرُد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فَقُلْ وأقمْ لنا رأياً نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول كاهن، قال: لا واللّه ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه؛ قالوا: فنقول مجنون؛ قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تجالجه ولا وسوسته قال: فنقول شاعر قال: ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول ساحر قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم قالوا فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: واللّه إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ أصله لعذق وإنّ فرعه لجناة ـ قال ابن هشام: ويقال لغدق ـ وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عُرِفَ أنَّه باطل، وإنَّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقولٍ هو سحر يفرّقُ به بين المرء وأبيه،

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص ١٧٤ - ١٧٥.

وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته. فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بِسُبُل الناس حين قدموا الموسم لا يمرّ بهم أحد إلاّ حذّروه إيّاه وذَكَروا له أمره فأنزل اللّه في الوليد بن المغيرة وفي ذلك قولُه:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِل كَيفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلاَّ قَولُ البَشَرِ﴾(المدَّثِّر: ١٨ ـ ٢٥).

ومن الطبيعي، أنّ كلمة السِّحر، هذه، التي اختارها الوليد لتكون تهمة تُبْطِل دعوى الرسالة.. ليست هي ما ينطلقُ به أسلوبُ السَحَرة.. بل هو السحرُ الذي يأخذ بمجامع القلب لروعة الفكرة والكلمة والأسلوب.

أمّا صفة الجنون فقد كانت من الكلمات التي لا تُقنع حتى أصحابها.. بل هي من قبيل الكلمات التي تُلقَى دون وعي، وبلا معنى.. ولذا أرادهم القرآن الكريم، فيما نقله من أسلوب النبيّ في حواره معهم، أن يراجعوا فكرهم لينتهوا إلى الهزء والسخرية بهذه الكلمة..

قال تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّه مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَي عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾**(سبأ:٤٦).

وهكذا نلاحظ أنّ النبيّ لم يواجه الموقف بحركات تَشَنُّجيّة، أو مواقف انفعالية، كما يواجهه أولئك الذين يُثيرهم تحدّي الآخرين

الذاتي في لغة السُّباب والمهاترات، ليبادلوه سُباباً بسُباب، وقذفاً بقذف، بل واجهه بهدوء الرسالة وروح الرسول بأسلوب الحوار الهادىء المتَّزن، لأنَّ القضيّة ليست قضيّة الشخص، بل قضيّة الرسالة.. ولذا فلا بدَّ للأسلوب من أن ينطلق من خلال مصلحة الرسالة، على أساس خطّها المستقيم، في فكرها العميق، ووداعتها السَّمحة، وموقفها الواثق المطمئن.

وقال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَل جَاءَهُم بِالحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾(المؤمنون: ٧٠).

﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِم لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾(القلم: ٥١ - ٥٢).

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(التكوير: ٢٢).

وقد نجد في هذه الآيات أنَّ اللّه يتحدّث عن هذه الفِرْيَة، بكل هدوء، ليعرِّفنا في الآية الأولى أنَّ القضيّة ليست قضيّة فكرة يؤمنون بها في قرارة نفوسهم، ولكنّ القضيّة هي كراهتُهم للحق الذي جاء به، في الوقت الذي لا يريدون أن يرتبطوا به، كما لا يريدون أن يُظهروا معاندتهم له.. فكان العذر الوحيد لهم في الرفض والسلبيّة في الموقف من النبيّ، اتّهامه بالجنون.. أمّا في الآية الثانية فإنَّ اللّه يصوّر لنا الكافرين في حالة الهلع والضيق والاستغراب التي تجعلهم ينظرون إلى النبيّ شزراً.. احتجاجاً

على ما جاء به من الذّكر.. ثم لا يلبث القرآن إلاّ أن يربطنا بالحقيقة من خلال طبيعة الوحي الإلهي فيدعونا إلى مواجهتها بالفكر لنعرف أنّه ذكرٌ وموعظةٌ للعالمين..

أمّا الآية الثالثة فإنّها تنفي القضيّة من ناحية المبدأ، دون أن تقدّم أيّ ردٍّ تفسيريّ أو تحليليّ بل تحاول أن توحي بأنَّ القضيّة لا تحتمل الأخذ والردّ لأنّها واضحة بشكل لا يَدَعُ مجالاً للجدل..

ونلاحظ في بعض الآيات الكريمة، أنهم يُلصقون بالنبيّ تهمة الرجل المسحور التي تشبه صفة الجنون وإن كانت تختلف عنها في بعض خصائصها ومظاهرها، ولا يحاول القرآن في هذا الموضوع إلاّ أن يُطلِق صفة الظُّلم على هؤلاء الذين ظَلَموا أنفسهم بالشرك وظلموا النبيّ(ص) بافتعال التُّهم الكاذبة عليه، ثم يُعقِّب على ذلك بأنَّ هؤلاء الظالمين قد ضلّوا عن الرُّشد والحقّ فلا يستطيعون سبيلاً يُوصلهم إلى الحق ويَهديهم إلى الرشاد.

قال تعالى: ﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً * انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾(الإسراء:٤٧ ـ ٤٨).



في رحاب رسول اللَّه(ص)

قصائد لسماحة آية اللَّه العظمى

السيّد محمد حسين فضل الله

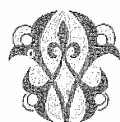
يا رسول الله

يا رَسُولَ السَّلامِ يَنْبُضُ بالرُّوحِ حَياةً وَرَحْمَةً وَجمالا
أنْتَ أطْلَقْتَهُ لِينْعَمَ فيهِ الكَوْنُ لُطفاً ونِعْمةً وظِلالا
مِنْ جَلالِ الوحْيِ العَظِيمِ، مِنَ الوحْيِ السماوِيِّ دَعوةً وابتهالا
مِنْ هُداكَ السَّمْحِ الطَّهُورِ يَضُمُّ الحُبَّ والخيْرَ روعةً وَجلالا

* * *

أنْتَ رُوحُ السَّلامِ.. أيُّ سَلامٍ لَمْ يَفِضْ وحيُهُ مِنَ اليَنْبُوعِ
مِنْ رَبيعِ المشاعِرِ البِيضِ، في رُوحِ النُبوّاتِ، من جَمالِ الرَّبيعِ
مِنْ صَفاءِ الأعْماقِ في هَدْهَداتِ الحُبِّ، من يقظةِ الضميرِ المَريعِ
مِنْ نَجاوى الرُّوحِ الَّتي تَتَلاقى في تَسابِيحِها نَجاوى الجُموعِ

* * *



أنْتَ رُوحُ السّلامِ أَطْلَقْتَ مِنْهُ شِرْعَةَ الحقِّ مَنْهجاً أريَحِيّاً
بَعْضُ مــا فِيهِ أنّهُ يُرهِفُ الحسَّ ضَميراً حَيّاً ورُوحاً نديّا
أُفقُهُ الرَّحبُ يَحْمِلُ الرّحْمَةَ الكُبرى لِأعدائِهِ شعوراً رَضِيّا
رَحمَةُ العَدْلِ حِينَ يَحْتَضِنُ الحَقَّ، فقيراً ـ في دَربه ـ وغَنِيّا

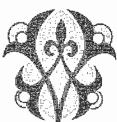


أنْتَ روحُ السّلامِ.. لَمْ يَتَفَتَّحْ لِلضُّحى عِندكَ السلامُ الكذوبُ
لمْ يَشُقْكَ الشعارُ يَحْمِلُ ألوانَ الأماني تُغْري المدى وَتَخِيبُ
إنّما كنتَ ثورَةَ الأريَحِيّاتِ إذا امْتَدَّ مِنْ سَناها اللّهيبُ
مَوْعِدُ السِّلمِ عِنْدَها مَشْرِقُ الفَجْرِ إذا أرهَقَ الحياةَ الغُروبُ



مَوْعِدُ السِّلمِ: أن تُشَقَّ على هَدْيِ الرِّسالاتِ في الحياةِ الدُّروبُ
وتَمُدُّ الجُسورَ عِبْرَ الضِّفافِ الخُضْرِ، والبحرُ هائِجٌ مَرْهُوبُ
وتُزَكّي النُّفوسَ بالحقِّ والحكمَةِ تَهدي وتَهتَدي وتَطيبُ
.. أنْ تُناجِيكَ كُلُّ آياتِهِ البَيْضاءِ تَصْفو بِطُهرِهِنَّ القُلوبُ





مَوْعِدُ السِّلْمِ : أنْ تعيشَ سَلامَ الرُّوحِ ، للهِ في خُشوعِ السَّلامِ
فَتَهِلُّ الصَّلاةُ يَنْبُوعَ خيرٍ يَسْكُبُ الحُبَّ في قُلوبِ الأَنامِ
وَيَفيضُ الدُّعاءُ إشْراقَ طُهرٍ يَبْعَثُ النُّورَ في جُفونِ الظَّلامِ
وَيُحَيِّي ـ باسمِ الإلهِ ـ غَدَ الأُمَّةِ ، إنْ عاشَ رَوعَةَ الإسلامِ



وَيَقولونَ : إنَّ دِينَكَ دِينُ السَّيْفِ يَمْتَدُّ في بُحُورِ الدِّماءِ
لم يَعِشْ فِكرَه ، لِيَفْتَحَ لِلْحقِّ طَريقاً ، على هُدى الأَنْبياءِ
لَمْ يُمَهِّدْ لِوَحْيِهِ الأرْضَ حتَّى تَسْتَريحَ الخُطى ، لظِلٍّ وماءِ
إنَّما كانَ يَسْتثيرُ الرِّياحَ الهوجَ ، عِبرَ العواصِفِ العَمياءِ



وَيَقولونَ ما يشاؤونَ .. مَنْ ذا يَصْدُقُ القَولَ ، هَل يُنيرُ السَّبيلا
إنَّهُ الجَهْلُ والعداوَةُ والحقدُ تُثيرُ الدُّجى وتُغري العُقولا
غيرَ أنَّا سَنَحْمِلُ النُّورَ مَهْما أسْدَلَتْ قُوَّةُ الضَّلالِ السُّدولا
وَغداً تُشْرِقُ الحقيقةُ ، فَلْنَحْمِلْ إليها التَّكبيرَ والتَّهليلا



ويقولونَ : إنَّ دينَكَ لمْ يحمِلْ سلاماً ، ولَمْ يَفِضْ غفرانـا
لَمْ يُفتّحْ وَعْيَ الضَّميرِ على الرَّحْمةِ تَهمِي على المدى رِضوانا
لَمْ يُنَضِّرْ بالأريحيَّاتِ دَرْبَ الغَدِ حُبًّا ورِقَّةً وحَنانا
بَلْ هوَ القُوَّةُ الَّتي تَزْرَعُ الأرضَ حُروباً وتَلْتَظي نيرانا



حَرْبُكَ السِّلْمُ .. أيَّ سِلمٍ يُريدونَ .. أيْنَ هو السلامُ لِلأقوياءِ
ليَعيشَ الظُّلْمُ المدَمِّرُ في الأرضِ ، بوحْيِ الخلائِقِ السَّمْحاءِ
نَحوَ فِكرٍ يَدْعُو الى الصَّفحِ إمَّا أثْقَلَ الظُّلمُ ، كاهِلَ الضُّعَفاءِ
فتَظَلَّ الحياةُ في لُعْبَةِ القُوَّةِ تَحكي حكايةَ البُؤساءِ



أيَّ سلمٍ تُريدُ ؟ هل يَخْنُقُ الحربَ سَلامٌ مُهَلْهَلٌ مَخْذولُ ؟
كلُّ ما عِنْدَهُ الوَصايا التي يُبْدِعُ أقداسَها الكتابُ الجَليلُ
يَعِظُ النَّاسَ بالهُدى، إنْ أضَلَّتْ خَطْوَهُمْ فِتْنَةٌ وفِكرٌ جَهولُ
وتُصَمُّ الأسماعُ عنهُ .. ويَبْقى الظُّلمُ يجري ويَعتَدي ويَصولُ



أيَّ سِلمٍ نُريدُ ؟.. هــل يَلتَقي الباطِلُ بالحقِّ في سَلامٍ أمينِ
أمْ يُناجي الحقُّ السماءَ لِترعــاهُ وتحميهِ مِنْ عَــدُوٍّ مبينِ
أمْ يُثيرُ الخُطى القَويّةَ تطْوي بالقِوى الهادراتِ أقوى الحصونِ
أيَّ سِلمٍ نُريدُ ؟.. لَنْ نَدَعَ الحقَّ ذليلاً في داجِياتِ السُّجونِ

* * *

هو سِلمُ الحَياةِ تَحمِلُ في كَفٍّ الرسالاتِ خُضْرَةَ الزَّيْتُونِ
وَتَمُدُّ اليَــدَ القويّةَ بالقُوَّةِ تَجتاحُ كُلَّ حِقْــدٍ دَفينِ
في جهادٍ : كلُّ انْطِلاقَتِهِ الحَمراءِ .. أنْ تَختَفي رياحُ الجُنونِ
وتَسيرُ الحَياةُ في دَرْبِها الرَّحْبِ إلى شاطِىء السَّلامِ الأمينِ

* * *

هُو سِلمُ الحيـاةِ يَحْفَظُ لِلفكرِ سُراهُ ، ولِلْحياةِ هُداهـا
الدُّروبُ الّتي تَسيرُ إلى الفَجْرِ تُغنّي للشّمْسِ في نجـواها
والعيونُ التي تُحدّقُ في الآفاقِ في الغَيْبِ في انْطِلاقِ مداها
تَلْتَقي بالضُّحى ينابيعَ اشراقٍ طَهُورٍ تَمْتَصُّهُ مُقلَتاها

* * *

هُوَ سِلْمُ الحَياةِ .. عَيْنٌ على اللَّيْلِ ، وعينٌ على امتدادِ النَّهارِ
ليسَ حلماً ما تَرْتَجِيهِ فإنَّ الشَّوكَ يَرعى طَهارة الأزهارِ
وتَعِيشُ الآلامُ في مُلتَقى اللّذّاتِ تَحميهِ مِن أذى الأكْدارِ
وَتعودُ الأرباحُ تَحيا على دَرْبِ المآسِي في وَهْدَةِ الأخْطارِ

* * *

حَرْبُكَ السِّلْمُ لِلْهُدى، لِخُطى العَدلِ، لفجرِ الإنسان في الأجيالِ
حَسبُهُ : أنّه انتَضى السَّيفَ حَتى يَسقُطَ السَّيفُ من يَدِ الأنذالِ
والفُتُوحاتُ في مَداهُ رِسالاتٌ تُناجي مَواقِفَ الأبطالِ
في انْفِتاحِ التّاريخ لِلْقِيَمِ الكُبرى ، على هَدْيِ حامِلِ الأثقالِ

* * *

حَرْبُكَ السِّلْمُ .. تَنحني فَوْقَ جُرحِ الأرْيَحِيّاتِ في نِداءِ القتالِ
قاتِلوا الظّالِمينَ في قُوَّةِ العَدْلِ ، وشُدُّوا ـ معاً ـ خيوطَ النِّضالِ
إنَّما الشَّوطُ لِلَّذِينَ اطمَأَنَّتْ لهُداهُم مَشارِفُ الأعْمالِ
وتلاقَتْ على انْطِلاقِ خُطاهُم رَوْعَةُ النُّورِ في جُفُونِ اللَّيالي

* * *

يا رسولَ الأَخلاقِ .. تَمتَدُّ في الرُّوحِ كَما امْتَدَّ بالشُّعاعِ النَّهارُ
يَتمنّى أنْ يَغمُرَ الكَونَ، كلُّ الكَونِ، لطفٌ مِنَ الضّحى مَوّارُ
وَرَخاءٌ تَرتاحُ في ظِلّهِ الدُّنيا وَتَجري على اسْمِهِ الأنْهارُ
وَسَماحٌ يَفيضُ بالحُبِّ والنّعمى وتَهْفو - لِصَفْوِهِ - الأسحارُ

* * *

وَحَيُكَ: الرَّحْمَةُ الّتي تُنْبِتُ القلبَ حَناناً وتملأُ الأَرضَ بِرّا
وَتَهُزُّ الأَعْماقَ بالأرْيَحِيّاتِ العَذارى تَفوحُ - كالزَّهْرِ - عِطرا
فَهيَ في السِّلْمِ دَمْعَةٌ لِليَتامَى تَتَلَظّى حُزْناً لِتَدْفَعَ ضُرّا
وَهْيَ في الحَرْبِ روعةُ العَدْلِ في الإنسانِ تَسْتَنْزِفُ المَشاعِرَ طُهرا

* * *

خُلُقٌ تُومِضُ الوَداعَةُ في عَيْنَيْهِ كالفَجرِ في عُيُونِ الشُّروقِ
قَلْبُهُ الرَّحبُ .. في رَحابَتِهِ الدُّنيا، بما امْتَدَّ مِنْ سَماحٍ رَفيقِ
حَسْبُهُ: أنّهُ يَمُدُّ إلى كُلِّ يدٍ للسَّلامِ، كَفَّ الصَّديقِ
وَيُنيرُ القُلوبَ، بالكَلِمِ الطّيبِ، إنْ أظْلَمَتْ نَجاوى الطّريقِ

* * *

فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ .. كُنتَ اللَّيِّنَ السَّهْلَ في الشُّعورِ الرَّحِيمِ
كَلِماتٌ تَرْتاحُ في الجَنَّةِ الخَضْراءِ ، في أُفْقِها الوديعِ الحَليمِ
لَستَ فَظَّ اللِّسانِ ، لَستَ غَليظَ القلبِ، بل كنتَ رحمةً للخُصومِ
..والْتَقى المُسْلمونَ حوْلَكَ في رُوحٍ وَديعٍ في كُلِّ خُلقٍ كريمِ

* * *

أيُّ خُلْقٍ .. هذا الذي تُولَدُ الرَّحْمَةُ فِيهِ على شِفاهِ الدُّعاءِ
في خُشوعِ الرِّسالة الحيَّةِ البَيْضاء في الفَجْرِ في هُدى الأَنْبياءِ
رَبِّ : يا باعِثَ الحَقيقَةِ تَزْهُو الأرضُ في رُوحِها بوَحْيِ السَّماءِ
إهْدِ قَوْمِي، واغْفِر لَهُمْ وافْتَحِ الأَعْيُنَ مِنهم على هُدىالإسراءِ

* * *

أيُّ خُلْقٍ هَذا .. وَيُمْعِنُ بالعَسْفِ طُغاةُ الضَّلالِ كفراً وحِقْدا
وَيُنادُونَ : إنَّهُ السِّحْرُ ، فَلْنَخْنُق تعاوِيذَهُ ، لِنَبلُغَ رُشْدا
ويَقُولونَ : إنَّهُ الشِّعْرُ ، يا لِلشِّعْرِ يَنسابُ في المشاعِرِ شَهْدا
إنَّه حامِلُ الأَساطِيرِ ، فَلْنُبْطِلْ أساطِيرَه انْتِقاماً ورَدّا

* * *

وَيَرِفُّ السَّماحُ والحِلمُ والإيمانُ في رَوْعَةِ الصَّفاء الطَّهورِ
أيُّها الخابِطونَ في اللَّيْلِ ، في جَهْلِ التَّقاليدِ ، في ظلامِ العُصورِ
إنَّني هاهُنا أُنادي خُطَى الفَجْرِ أُنَدّي بهِ لَهيبَ السَّعيرِ
أهْدِمِ السِّجْنَ .. يَصْرَعُ الفِكرَ بالأغْلالِ تَمتَدُّ في نجاوى الصُّدورِ

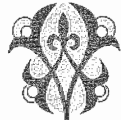
* * *

أنا مِنكُم عِشْتُ الحياةَ مَعَ الجيلِ الذي امْتَدَّ في خُطى الطُّغْيانِ
عُمُرَ الأرْبعينَ في كُلِّ دَرْبٍ من دُرُوبِ الإسرارِ والإعلانِ
لَمْ أُحرِّك خطواً ولَمْ أتْلُ ذِكراً في حَديثِ الإيمانِ والكُفرانِ
أفلا تَعْقِلونَ .. مَنْ يَجْعَلِ العَقْلَ هُداهُ يَعرفْ هُدى الرَّحمنِ

* * *

أيُّها الخابِطونَ في اللَّيلِ .. هَلْ يَحْمِلُ سِحرُ الكُهّانِ وَعيَ الصباحِ
هَل يُناجي الشِّعرُ المُجَنَّحُ بالأحلامِ ما امْتَدَّ من ذُرى الأرْواحِ
أتُثيرونَ فيهِ لَغْوَ الأساطِير ، أيَجْري البُهتانُ في كُلِّ ساحِ
.. إنَّهُ يَحْمِلُ الحَقيقَةَ يَرْعاها فَهل تعرِفون سِرَّ النَّجاحِ

* * *



.. وتمرّ السُّنونُ خلفَكَ في الصَّحراءِ تخْطُو على حكايا العَبيرِ
في ربيعِ الخُلُقِ الرَّضِيّ الذي يغسِلُ بالحُبِّ همهاتِ الصُّدورِ
ويرُشُّ الأرض الجَديبَة بالألْطافِ خِصْباً يرِفُّ فوقَ الصُّخورِ
وتعيشُ الدُّنيا لِتحلُمَ بالخُلُقِ الإلهِيِّ .. مِنْ رسولٍ كبيرِ



وتمُرُّ السُّنونُ ـ بعْدَكَ ـ والإسلامُ يخْطُو على هُداكَ الحبيبِ
يتهادى تاريخُكَ الحُرُّ في عُمْقِ السَّرايا ... وفي شِغافِ القُلوبِ
كلُّ لمْحٍ مِن سيرَةِ الحَقِّ نفْحُ العِطْرِ في خُطْوَةِ الرَّبيعِ الخَصيبِ
وشُعاعٌ يهدي السَّبيلَ إلى كلِّ انْطِلاقٍ على امْتِدادِ المَغيبِ



وهُنا نحنُ في خُطاكَ النَّديَّاتِ .. إلى دَعْوَةِ الشروقِ نُشيرُ
دربُنا دربُكَ الطَّهورُ إلى الله .. وخُلْقٌ مُنَضَّرٌ وشعورُ
وحياةٌ كلُّ الهُدى، في هُداها السَّمْحِ .. أنّى تلَفّتَتْ فهيَ نورُ
وغدٌ واعِدٌ بكُلِّ مواعيدِ الجِنانِ الخَضْراءِ .. حيْثُ يسيرُ



يا رَسولَ الخُلُقِ العَظيمِ.. هُنا نَحنُ نُعاني مِنْ وَسْوَساتِ الضَّلالِ
مِنْ نجاوى لا يستَريحُ لها الشَّوْطُ.. ففي وَحْيِها جنونُ اللَّيالي
وَحديثٌ فَظٌّ.. وَقَلْبٌ حقودٌ يَسْتَثيرُ البَغْضاءَ في كلِّ حالِ
فيخالُ الإيمانَ عسْفاً.. ويَنْسى خُلقَكَ السَّمْحَ في ضَميرِ الرِّجالِ

* * *

يا رَسولَ الخُلْقِ العَظيمِ.. متى يَصْحُو السُّكارى مِن خمرَةِ الغافِلينا
هؤلاءِ الذينَ يَحْيَونَ لِلذّاتِ خُشُوعاً وَرَغْبَةً وَحَنينا
هَمُّهُمْ: أنْ يَعيشَ فيهِم هُدى اللهِ بَعيداً عَنْ خُطوَةِ العامِلينا
وَرؤاهُم: أن يَدْخُلوا جَنَّةَ اللهِ.. وإن أُغْلِقَتْ عن العالَمينا

* * *

يا رسولَ الخُلقِ العَظيمِ.. هُنا نَحْنُ التِفاتٌ إلى الذُّرى وانْفِتاحُ
أنتَ كُلُّ الذُّرَى التي تَحمِلُ الشَّمْسَ فَيَزْهُو في جانِحَيْها الصَّباحُ
وَهُنا نَحْنُ في السُّفوحِ بَقايا مِنْ فُلولٍ تَلْهُو بِها الأَشباحُ
مِنْ ظلامِ العُصورِ حيثُ استراحَ الجَهْلُ للحُكمِ وَهْوَ ظلمٌ صراحُ

* * *

وَوَقفْنا لَدَيْكَ نَخْشَعُ في المِحْرابِ نُصْغِي لِروعَةِ التَّسْبيحِ
حَيثُ تَنْسابُ كالنَّدى نَفَحاتُ الذِّكْرِ في لَهفة الدُّعاء الجَريحِ
وكأنّا نُحُسُّ بالدَّمْعِ مَحْزوناً نَقِيّاً مَعَ ابْتهالِ الرُّوحِ
حيثُ تَحيا الصَّلاةُ، في لَحَظاتِ القُربِ، كالنور، في الذُّرى والسُّفوحِ

* * *

ويقولون ـ والنجاوى نداءٌ يَتَلَظّى في لَهْفَةٍ وَحَنينِ
ودُعاءٌ يهفو إلَيْكَ .. يُناديكَ، بأعْماقِ ثائرٍ وحزينِ
أنْكَ مَيْتٌ .. وليسَ للمَيْتِ نَجْوى توقظُ الحسَّ في الشُّعورِ الحَنونِ
أنْكَ مَيْتٌ .. هَل يَمْلِكُ الميْتُ حوْلاً يَدفعُ الضَرَّ في رياحِ السنينِ

* * *

وَيقولونَ: أنكَ مَيْتٌ .. ولكِنْ أنْتَ حَيٌّ في خاطِرِ الأَرْواحِ
أنتَ حَيٌّ عندَ الإلهِ، بِرَغْمِ الموتِ، حَيٌّ في كُلِّ دَرْبٍ وساحِ
وَشفيعٌ لِلمُذْنبينَ على دَرْبِ الرِّسالاتِ في جُنونِ الرِّياحِ
تَسمَعُ الكِلْمَةَ التي تُورِقُ الخُضْرَةُ فيها.. في مُلتَقى الأدواحِ

* * *

إنَّنا ها هنا نناجيكَ .. لا نخشعُ لِلقبرِ .. لِلْحَصى.. لِلْحِجارَهْ
كُلُّ كِلْماتِنا النَّقِيَّةِ لِلهِ ، لِآياتِهِ ، لِمجْدِ الطّهارَهْ
لَكَ باسْمِ الدّينِ الذي يَحْضُنُ التّوحيدُ في روعةِ الحَياةِ شِعارَهْ
لَكَ .. لِلهِ .. أنتَ أنتَ رسولُ اللهِ .. نحيا على التُّقى أسْرارَهْ

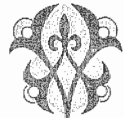
* * *

أنتَ سِرُّ الرِّسالَةِ الطّهْرِ .. إنَّا قدْ وَعيْناكَ دَعْوَةً وَرِسالَهْ
وَجِهاداً حرّاً يَشُدُّ على الدُّنْيا يَدَيْهِ سَعادَةً وعَدالَهْ
وَبَشيراً تَعيشُ كُلُّ جِنانِ الطُّهْرِ في وَحْيِهِ، وَتَرْعى جَمالَهْ
وَنَذيراً يَشْتَدُّ كُلُّ سعيرِ النّارِ في آيِهِ لَظىً وَجَلالَهْ

* * *

وَتَنادى المُخَلَّفونَ مِنَ التّاريخِ .. أنْ يَذكُروكَ حُبّاً وَوَجْدا
أن يُغنّوا .. أنْ يَستَعيدوا الأناشيدَ التي تَلْتَقي بذاتِكَ مَجْدا
في انْسِيابٍ، مَعَ الشُّعورِ الذي هَزّت لَهُ النُّعْميات في الرُّوحِ مَهدا
ثُمَّ ماذا .. لا شيءَ إلاَّ بقايا حَسَراتٍ يَجْتَرُّها القلبُ فَرْدا

* * *



لَسْتَ أنتَ الذي نُحِبُّ .. رسولَ اللهِ .. فيمَنْ نُحِبُّ أو نَتغنّى
أنتَ ـ في عَتْمَةِ الظّلامِ الذي عِشْناه ـ بَدْرٌ يَهِلُّ بالنُّورِ حُسْنا
نَتَملاّك في خيالاتِنا الجَوفاءِ لَفْظاً يَغِيبُ عَنْ كلِّ مَعْنى
وَمِثالاً يُوحي لَنا أُغْنَياتِ العِشْقِ في دَرْبِنا المُخدَّر مِنّا



والمواليدُ ، والرُّقى ، والتّعاويذُ ، وَصوْتٌ يَسيلُ في اللَّيلِ وَهْنا
يا حَبيبي يا رَوْعَةَ الحُسْنِ ، يا مُنْيَةَ قلبِ المُدَلَّهين المُعَنّى
وتَدُورُ الآهاتُ سَكرى ، خيالٌ يَتَهادى ، ونَغْمَةٌ تَتَمَنّى
ويَظَلُّون يَهْمِسونَ ، ويَغْفُونَ ، ولا يُغْمِضون لِلَّيْلِ جَفْنا



لستَ أنتَ الذي نُناجِيكَ .. نَدْعوكَ .. لِتَرضى بقُدسِ ذاتِك عَنّا
في الشِّفاهِ التي تَعَلَّمَتِ الزَّيفَ وعاشتْ تَصوغُه ـ العُمرَ ـ فَنّا
في مَدانا نُزْجي السَّلامَ بِقَلْبٍ قَلَّبَتْهُ الآلامُ رُكْناً فرُكْنا
والصَّلاةُ التي نُمارِسُها ـ باسمِك ـ لمْ تَنْطَلِقْ ـ بِوَحْيِكَ ـ لَحْنا



إنّها صورَةُ انفعالاتِنا الجوفاءِ ، وَحْيُ الرؤى التي تتجنّى
كان عهدٌ .. وَمرّتِ السّنواتُ العُجْفُ تطوي الحياةَ قرناً فقرنا
ووَقفْنا : لا نَمْلِكُ الرّوحَ لا يورِقُ فينا ربيعٌ وحَيك غُصْنا
جَفّتِ النّعمياتُ من وَحْيِنا الشّادي فلَمْ يَنْطَلِقْ بمعناكَ معنى

* * *

أنتَ مَنْ أنتَ .. أنتَ إنسانُنا الأسمى .. هُدانا على الطريق الطويلِ
قَولُكَ الوَحْيُ .. دَرْبُكَ الشّرعةُ السّمْحاءُ عَبْرَ التكبير والتّهليلِ
ومَداكَ الإنسانُ في كلِّ أفقٍ يتملّى شروقَه كلُّ جيلِ
أنتَ إنسانُنا الذي ترْفَعُ القِمّةَ تاريخَهُ لِكُلِّ دَليلِ

* * *

بَشَرٌ ، أنتَ ، كالنّبيّينَ ، لَمْ ترهِقْ سَراياكَ بالضّبابِ الثّقيلِ
لَمْ تسخّرْ لِلمُلْكِ وحيَ الرّسالاتِ ليزهو لديكَ مَجْدُ القَبيلِ
لَمْ تَقُلْ للسُّراةِ ، أنّكَ في الغَيْبِ وراءَ الأشباحِ ، فوقَ العُقولِ
إنّما الغَيْبُ في حياتِكَ وَحْيُ الله .. تحياهُ في هُدَى التنزيلِ

* * *

بَشَرٌ ـ أنتَ ـ كالنَّبِيِّينَ .. في طُهْرِ اليَنابيعِ.. في صَفاءِ الشُّروقِ
عَصَمَتْ خَطْوَكَ الرِّسالةُ من كلِّ اهتزازٍ في لامِعاتِ البُروقِ
الأماني لَدَيْكَ لا تلتقي بالذّاتِ في نَزْوَةِ المِزاجِ الرَّقيقِ
كُلُّ آفاقِها الرِّسالاتُ.. يَغْفُو الحُلْمُ فِيها في هَدْهَداتِ المَشُوقِ

* * *

أنتَ ـ في عِصْمَةِ الرِّسالَةِ ـ فِكْرٌ يَستثير الضُّحى، ويُحيي العُقولا
دَربُهُ الشَّمْسُ، لا يَمُرُّ بِهِ اللَّيلُ الذي يَحْجُبُ الضِّياءَ الجميلا
حَسْبُهُ : أنَّهُ يُفَتِّحُ لِلدُّنْيا ولِلدِّينِ عالَماً مَجْهولا
لِتَعِيشَ الحَياةُ ـ عَبْرَ صَفاءِ الحَقِّ ـ باسم الرَّسولِ ـ ظِلاً ظَليلا

* * *

إنَّها عِصْمَةُ النُّبُوّاتِ.. سِرٌّ يَتَخَطّى الحَياةَ.. يَهدي خُطاها
في انفِتاحٍ تَرْتاحُ في طُهْرِهِ الدُّنيا، إذا هَدْهَدَ الشُّروقُ سُراها
حَسْبُها : أنَّها تَسيرُ لِتُلْقي عِنْدَه في الطَّريقِ كُلَّ عَناها
وتَمُدُّ العُيُونَ نَحْوَ الصَّفاءِ السَّمحِ.. تَمتصُّ ـ وحيَهُ ـ مُقْلتاها

يَا رسُول الحَياة

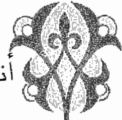
يا رَسُولَ الحَيَاةِ : نَضِّرْ قَصيديْ بِنُثَارٍ مِنْ فَجْرِكَ المَنْشُودِ
عَلِّني أسْتَحِثُّ لَمْحَةَ ذِكْرَا كَ .. لِجِيْلٍ يحيا حياةَ الشَّرِيدِ
وَأغنّيهِ : كَيْفَ كنتَ.. وكانتْ بَسْمَةُ الفَتْحِ في فَمِ المولودِ
كيفَ كانَ الهُدَى يَهُزُّ عُروشَ الظُّلم.. في فَتْكَةِ الرِّماحِ المِيْدِ(1)
عَلَّهُ يَنْشُدُ الحياةَ - كما سِرْ تَ - طليقَ الخُطَى نَقِيَّ البُرُودِ
فَهْوَ يحيا هنا.. وراءَ ستارِ الليـ ـلِ.. جَرْياً ما بينَ خَمْرٍ وغيدِ(2)
ليسَ يدريْ أنَّ الشبابَ إذا لمْ يُلْهِبِ الشَّوْطَ بِالصِّراعِ العَنيدِ
سَوفَ يَهوي إلى قَراراتِ دُنْيا هُ .. جَرِيحاً في أفُقِهِ المحدودِ

* * *

وَتَجلَّتْ ذِكْراكَ.. فَانتَفَضَ الفَجْـ ـرُ.. وَهَشَّ الضُّحى لِذِكرى الوليدِ
يا لَدُنيا تسيرُ.. والنُّورُ يَحدُو هَا.. إلى مَوْكِبِ السَّماءِ الجديدِ
أيُّ لحْنٍ : أثَارَ دَمْدَمَةَ الوا ديْ.. وَهَزَّ الحياةَ باسمِ الخُلودِ
فَإذا كُلُّ زَهْرةٍ تَنْفُضُ العِطْـ ـرَ .. لِتَسْتَافَ مِنْ عَبيرِ الوجُودِ(3)

---

(1) الميد: التحرك والميل.
(2) غيد: مفردها غادة، المرأة اللينة الناعمة.
(3) تستاف: تشمّ.



أنتَ أودعتَ حـقلَهـا كلَّ رفَّـا ... فِ مِنَ الزَّهْرِ مـائجٍ بالنشيـدِ
أنتَ أنبتَّ في حـقـولِ الكرامـا ... تِ حـيـاةً خَـفَّـاقـةً بالبنودِ
أنتَ رَنَّحتَ زَهْوة النُّورِ في أفْـ ... ـقٍ تَرامى بينَ الأسى والجمـودِ
وخَلَقْتَ التَّـاريخَ في أمَّـةٍ تَجْـ ... ـري.. وتاريخُـهـا صريعُ الرُّكـودِ

* * *

ثُمَّ لَوَّحْتَ أنَّ دَعْـوَتَكَ الطُّهْـ ... ـرَ.. امـتـدادٌ لدعـوةِ التَّـوحـيـدِ
تَتَـقـرَّى مـواطنَ الدَّاءِ في رِفْـ ... ـقٍ.. وتحنو على جراحِ العـبـيـدِ
وَقَـفَتْ بينَ حَاضـرٍ ينشدُ النُّورَ، ... ومـاضٍ يأبى عن التـجـديـدِ
وعلى اسمِ الزَّكـاةِ: سـارتْ بدنيـا ... كَ اشـتـراكـيَّـةٌ لعـهـدٍ جـديدِ
فَـجَنَتْ من عُـصـارةِ المالِ دنيـا ... تجتني النورَ من ثمـارِ الجهـودِ
وتخطَّتْ مجاهلَ الدَّربِ في الصَّحْـ ... ـراءِ.. والكونُ في ظلامٍ شـديدِ
فـإذا القـفـرُ واحـةٌ: تبعثُ الظِـ ... ـلَّ مـديداً على خطوطِ البـيـدِ
وإذا بالرَّخـاءِ: يحـتـضنُ الأرْ ... ضَ، ليطويْ ذكـرى العهـودِ السُّودِ
بُورِكَتْ ثروةُ الحـيـاةِ: تغـذِّيـ ... ـهـا.. بفِكرٍ حـرٍّ، ورأيٍ سـديدِ
ليـعـودَ الجـمـيعُ... في دعـوةِ الحـ ... ـقِّ سـواءً في ظلِّـهِ المـمـدودِ

* * *

يا رسولَ الحياةِ: أنتَ هنا.. في الـ ... ـحَقْلِ.. في يقظةِ الصباحِ الرَّغيدِ[1]
فَـتَلمَّسْ أزهـارَهُ: هلْ تَرى فـيـ ... ـهـا رواءَ النَّدى وزهْوَ الورودِ

---

(١) الرغيد: طيب واسع.

.. وَتَسَاءَلْتَ كيفَ جَفَّتْ.. وكانتْ ... أمْسِ كالحبِّ في دمِ المعمودِ
أتَرَاها نَهْبَ الأعاصيرِ.. والآ ... فاقُ ملأى بعاصفاتِ الرعودِ
إنّها تَنْشُدُ الحياةَ ولكنْ ... كيفَ ترجو الحياةَ خَلْفَ السُّدودِ
أيْنَ منها.. مَرَابعُ النّورِ.. والنّو ... رُ تلاشى في حَالِكَاتِ العهودِ
فَتَلَوّتْ: كما تَلَوّى مِنَ البُؤْ ... سِ رهينُ الشَّقاءِ والتنكيدِ
إنّهُ زَهْرُكَ الجميلُ.. لَمَحْنَا ... هُ .. ولمّا يَزَلْ طَرِيَّ العُودِ
حينَ كانتْ تَنْهَلُ بالنّورِ أطيا ... فٌ وتهْمي بالشَّدْوِ والتَّغريدِ
فَتَرَفّقْ بها.. فَقَدْ هزّهَا الإعـ ... ـصَارُ.. في ثورةِ الخَريفِ العنيدِ
وتَعَرّتْ مِنَ السّنا.. وغَفَتْ فَو ... قَ هَشيمٍ مِنْ حَقْلِهَا المَجْرودِ
وَجَرَى الدهرُ فوقَهَا.. فتهاوتْ ... بينَ عَسْفِ الدُّجى ولَسْعِ الجَليدِ(1)

* * *

ويقولونَ: أنَّ دينَكَ ماتَتْ ... في حناياهُ.. ثورةُ التَّجديدِ
بَعْثَرَتْ خَطْوَهُ الحياةُ فلمْ يَمْـ ... ـلِكْ طريقاً... إلى مَجَالِ الخلودِ
وتَخَطّتْهُ قافلاتُ الغدِ الآ ... تيْ.. ولّما يَزَلْ صَريعَ الهُجودِ
في ظِلالِ تُغْرِيهِ: أنْ يَدَعَ الدَّرْ ... بَ.. ويجريْ إلى مَجَالٍ بعيدِ
حَيْثُ لا وَثْبةُ الصِّراعِ تُنَاديـ ... ـهِ.. ولا ثورةُ اللّظى والوَقودِ
وتقولُ السّماءُ: دينُكَ جبّا ... رٌ.. يَشُدُّ الخطى بروحِ الصّمودِ
وسَمَاحٌ يوحي لنا أنّنا نجـ ... ـريْ.. معَ الكونِ في نِظامٍ فريدِ

---

(1) عسف: ظلم.

لم يُسَخِّرْ لِبَعْثِ قرآنِهِ الأَسْـ ... ـمى.. بآفاقِنَا سِيَاطَ الجُنودِ

لا.. ولمْ يَغْصِبِ الثِمَارَ ... لِيَمْتَصَّ بها بُلغَةَ الضَّعيفِ الوحيدِ(١)

إِنَّمَا كانَ قُوَّةَ تجْذِبُ الفِكْـ ... ـرَ لآياتِهَا بِغَيرِ وَعيدِ

تَحْمِلُ النُّورَ في يَدٍ، وَتُغَذِّي ... بيدٍ كُلَّ مُسْتَضَامٍ طَرِيدِ

وَتَضُمُّ القلوبَ حَولَ جِراحٍ ... مِنْ لُهَاثِ المُحَطَّمِ المكدودِ

وتُحيلُ الأسى ينابيعَ حُبٍّ ... تتلاقى على ربيعِ الوجودِ

رَكَضَتْ فَوقَهَا السنونَ وما زا ... لتْ بِأجفانِهَا طُيوفُ الخُلودِ

كلُّ ما تبتغيهِ أنْ تَرفَعَ الرَّا ... يَةَ.. رَمْزاً لِرَوْعَةِ المعبودِ

ويعيشَ الجميعُ.. في ظِلِّ فَجْرٍ ... يَبْعَثُ الحُبَّ في الفضاءِ المديدِ

* * *

يا رَسُولَ الحَيَاةِ مَرَّتْ على الوا ... ديْ.. تهَاويلُ ظُلْمَةٍ وقيودِ

تتجنَّى على ملاعبِهِ الخُضْـ ... ـرِ فتَجْتَاحُ رائعاتِ الورودِ

رَوَّعَتْ لَمْحَةَ السَّنا في مآقِيـ ... ـنَا.. وَأهْوَتْ على بَقَايا النَّشيدِ

وَجَرتْ، وَهْيَ تَهْصِرُ الفَنَنَ الغَا ... فيْ.. على حُلْمِ مَجْدِنَا المفقودِ(٢)

في مَجَالٍ، لم نَدْرِ أنَّ اللَّظَى يَكْـ ... ـمُنُ في أفْقِهِ لِشَعْبٍ سَعيدِ

أوْهَمَتْنا: أنَّا صِغَارٌ.. وأنَّا ... ليسَ نَقْوى، على احتمالِ الحَديدِ

وبِأنَّ الحَيَاةَ، إنْ لمْ يُمَرِّنْـ ... ـهَا صِراعُ القوى كَحُلْمٍ بَديدِ

وَبِأنا إذا لَهَونَا وَضَمَّتْـ ... ـنا اللَّيالِيْ.. في لُعْبَةِ التمجيدِ

(١) بُلغة: كفاية قوت.
(٢) هصر: جذب

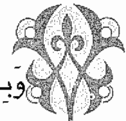
حيثُ يَختالُ: في مَرابِعِنا الـ ـسَيِّدُ حُراً يَرعى شُؤونَ المَسودِ
ثمَّ يحنو على جراحِ أمانيـ ـنا بِرِفْقِ الأبِ الأبرِّ الحميدِ
ويُغنّي لنا: لِنَعْلَمَ أنَّ الـ ـصَّبْرَ.. نَبْعٌ مِنَ الهَنَا والسُّعودِ[1]
إنَّما كانَ قوَّةً تجْذِبُ الفِكْـ ـرَ لآياتِها بِغَيرِ وَعيدِ
تَحْمِلُ النّورَ في يَدٍ، وتُغَذّي بيدٍ كلَّ مُسْتَضامٍ طَريدِ
وَتَضُمُّ القلوبَ حَولَ جِراحٍ مِنْ لُهاثِ المُحَطَّمِ المكدودِ
وتُحيلُ الأسى ينابيعَ حُبٍّ تتلاقى على ربيعِ الوجودِ
رَكَضَتْ فَوقَها السنونَ وما زا لَتْ بِأجفانِها طُيوفُ الخُلودِ
كلُّ ما تبتغيهِ أنْ ترْفَعَ الرَّا يَةَ.. رَمْزاً لِرَوْعَةِ المعبودِ
ويعيشَ الجميعُ.. في ظِلِّ فَجْرٍ يَبْعَثُ الحُبَّ في الفضاءِ المديدِ

* * *

يا رَسولَ الحَياةِ مَرَّتْ على الوا دي.. تَهاويلُ ظُلمةٍ وقيودِ
تتجنّى على ملاعبِهِ الخُضْـ ـرِ فَتَجْتاحُ رائعاتِ الورودِ
رَوَّعَتْ لَمْحَةَ السَّنا في مآقيـ ـنا.. وأهْوَتْ على بَقايا النَّشيدِ
وجَرَتْ، وَهْيَ تَهْصِرُ الفَنَنَ الغا فيْ.. على حُلْمِ مَجْدِنا المفقودِ[2]
في مَجالٍ، لم نَدْرِ أنَّ اللّظى يَكْـ ـمُنُ في أفْقِهِ لِشَعْبٍ سَعيدِ
أوْهَمَتْنا: أنّا صِغارٌ.. وأنّا ليسَ نَقْوى، على احتمالِ الحَديدِ
وَبِأنَّ الحَياةَ، إنْ لَمْ يُمَرِّنْـ ـها صِراعُ القُوى كَحُلْمٍ بَديدِ

---

(١) السُّعُود: م السّعد، اليمن، وهو نقيض النحس.
(٢) هصر: جذب.



وَبِأنا إذا لَهَوْنَا وَضَمَّتْـ ... ـنا اللّيالِيْ.. في لُعْبَةِ التمجيدِ
حيثُ يَخْتَالُ: في مَرابِعِنا الـ ... ـسَّيِّدُ حُرّاً يَرْعى شُؤونَ المَسُودِ
ثمَّ يحنوْ على جراحِ أمانيـ ... ـنا بِرِفْقِ الأبِ الأبَرِّ الحَميدِ
وَيُغَنِّي لنا: لِنَعْلَمَ أنَّ الـ ... ـصَّبْرَ.. نَبْعٌ مِنَ الهَنَا والسُّعُودِ(١)
وَبأنَّا: إذا قَنِعْنَا بما نُعْـ ... ـطَى فَلَمْ نَبْغِ ما وراءَ الحدودِ
سوفَ نُجْزَى على الجميلِ ونغدو ... مَثَلاً رائعاً لجيلٍ جَديدِ
لُغَةٌ لم نَجِدْ بها غَيْرَ ألْفَا ... ظٍ.. وفيْضٍ مِنْ كَاذِباتِ الوعودِ
خَدَّرَتْنَا؛ وكانَ ما كانَ.. ممّا ... ليسَ نُبْديهِ من دُجىً وقُيُودِ

* * *

أمّتي: أنْتِ هَا هُنَا.. وصدى الذِّكْـ ... ـرى.. يُثيرُ الأسى بِقَلْبِ الحَسُودِ
إنَّها عِيْدُكِ الحَبيبُ وَلَكِنْ ... أيُّ سِرٍّ يُطوى وراءَ العيدِ
ما لَهُ سارَ.. مُثْقَلَ الخطْوِ حَيْرا ... نَ.. يَجُرُّ الخُطَى بِفِكْرٍ شَرُودِ
أتُراهُ جَرَى فَشَاهَدَ ذِكْرا ... هُ.. بِآفاقِنَا نَذيرَ جُمُودِ
كلُّ ما عِنْدَنَا إذا مَرَّتِ الذِّكْـ ... ـرى.. نَشيْدٌ مُلَوَّنُ التَّرْديدِ
لَمْ نقِفْ عِنْدَهَا: لِنَفْهَمَ سرَّ ... النَّصْرِ.. في دَعْوةِ النبيِّ المجيدِ
.. إنَّه دينُهُ العظيمُ يُرِيْنَا ... في مجالِ السَّماءِ سِرَّ الصُّعودِ
وَيُغَذِّي حَيَاتَنَا.. بِرَبيعٍ ... مِنْ هُدَاهُ سَمْحٍ وَنَبْعٍ بَرودِ
وَحِّدي في لوائِهِ.. خَطْوَةَ الدَّرْ ... بِ وَسيريْ إلى الصَّرَاحِ المَشِيْدِ

---

(١) السُّعُود: م السّعد، اليمن، وهو نقيض النحس.

حَـيْثُ لا بـائِسٌ يموتُ مِنَ الـفَـقْـ ـرِ.. ولا سَـامـرٌ صـريعُ نُـهُـودِ
وانْفُـضي عَنْكِ مِنْ غُـبَـارِ الليـاليْ السُّودِ طيفَ الكَرَى، وَعَهْدَ الرُّقودِ
وابْدَئيـهِ، تـاريخَ عَـهْـدٍ، يَضُمُّ الـ ـمَـجْـدَ، مَـا بـيْنَ طَارفٍ وَتليـدِ

* * * * * *

يا رسولَ الحَيَاةِ: شكوى طَوَيْنا الـ ـدَّرْبَ في الليلِ في ظِلالِ الجُحُودِ
كـلَّ يومٍ لـنـا طريـقٌ: يُـمَـنِّيـ ـنَا بِأفْقٍ يسـمـو عَنِ التَّـحْـديدِ
ومَـبَـادٍ تَـصَـارَعَتْ في حنايا نَـا.. فَـكُلٌّ يُـومي لـنـا بِالمزيدِ
وَجَـرَيْنَا في البحـرِ.. والأُفْقُ يقـتا دُ شُـعَـاعَ الصَّبَـاحِ نَحْـوَ الخُمُـودِ
وَهَديرُ الأمـواجِ يَقْـتَـحِـمُ الزَّوْ رَقَ والرِّيحُ في هِيَـاجٍ شَـديدِ
وَتركْنَا في البَـرِّ زورَقَكَ الـهـا دِيَ وَسِـرْنَـا بِزورقٍ مِـنْ وُعُـودِ
هَكذا.. نحنُ مُـسْلِمُـونَ.. وَلـكِنْ بينَ كَـأْسِ الـهوى وخَـمْـرِ الخُدُودِ
ليسَ ندريْ مِنْ أمـرِنا غَـيْـرَ أنَّا نَمْـلأُ الأفْقَ ضَـجَّـةً بالعَـديدِ
أيْنَ روحُ الإسـلامِ تَـغْـمُـرُ دُنْيـا نَـا. وأيْنَ الأنـصَـارُ بيْنَ الجُنُودِ
ذَهَبَتْ: غَـيْـرَ أنَّنَـا ها هُنَا نَـرْ نُو بِشَـوْقٍ إلى دِمَـاءِ الشَّـهيـدِ
وَهُنَا نَحْنُ: أعْـيُنٌ تَـرْمُقُ الفَـجْـ ـرَ وَأيْدٍ تَشُـلُّ كَـفَّ الحَـقُـودِ
سَوفَ نجري، وَمَشْعَلُ الحَقِّ يَهْديـ ـنا إلى نَهْـجِكَ العظيمِ السَّـديدِ
وَسَـيَـبْـقَى صَـدَاكَ يَبْـتَـدِعُ الوعْـ ـيَ بِأعْـمَـاقِـنَـا لِفَـجْـرٍ وَلُودِ
وَصَـدَى الحَقِّ يَقْـظَةٌ وَحَـيَـاةٌ يَسْكُبُ الحُبُّ عِطْرَها في النَّشيـدِ*

النجف الأشرف ١٣٧٤/١/٨هـ

* ألقيت في الحفلة الكبرى التي أقامتها مدينة سوق الشيوخ العراق بمناسبة المولد النبوي الشريف في ليلة ١٧ ربيع الأول سنة ١٣٧٤هـ ونشرت في كتاب (مولد النور) الذي صدر بهذه المناسبة.. وفي العدد الثاني من مجلة العرفان مجلد ٤٤ت٢ سنة ١٩٥٦م، وبيع أول سنة ١٣٧٦م.

من وحي الميلاد النبوي

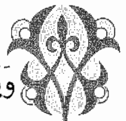
يا نَبِيَّ الأَحْـرارِ.. حَـرِّرْ نِدَائِيْ ... مِنْ حَـيَاةٍ.. مَـخْنُوقَـةِ الأَصْدَاءِ
وَازْرَعِ النُّوْرَ في دَمِي.. إنَّ نَجْـوَا ... يَ.. حُرُوفٌ مَغْمُوسَةٌ بِدِمَائي
وَتَعَـهَّـدْ روحيْ.. لأَبْصِـرَ ذِكْـرَا ... كَ.. بِـفِكْـرٍ.. مُنَـوَّرٍ.. بِالـسَّنَاءِ
فَـأُحِسَّ الجَـمَـالَ.. والحَقَّ.. والخَيْـ ... ـرَ.. يَنَابيعَ رَحْـمَـةٍ وإخَـاءِ
حَـوْلَ تَرْنيـمَـةٍ.. تَطَلَّعُ مِنْ فَـجْـ ... ـرِكَ.. رَمْـزاً لِيَـقْظَةِ الصَّحْـراءِ
مُـدَّني بِالحَـيـاةِ.. تَقْـتَـحِمُ الـ ... ـفَنَّ.. فَـتَـسْـتَلُّ شُعْلَةَ الأَضْوَاءِ
فَلَقَدْ يَعْـثِرُ البَـيَـانُ وَيَجْـتَـرُّ حَـ ... ـدِيْثَ الرُّواةِ والـشُّـعَـراءِ
إنْ تَنَـاءَى عَنِ الحـيـاةِ.. ولَمْ يَحْـ ... ـضُنْ بِكَفَّـيْـهِ.. رَائعاتِ السَّمَاءِ

* * *

مُـدَّني.. بِالحَـيَـاةِ.. تُبْـدِعُ مِـيلا ... دَكَ.. فَـجْـراً مُـعَطَّرَ الأَجْـواءِ
يَسْتَـحِثُّ[1] الضَّـبَـابَ.. فِيْ وَهَجِ ... الشَّمْـسِ.. لِيَذْرُوْهُ في دُرُوبِ الفَنَاءِ
ويثيرُ الرِّمَـالَ.. فِيْ لَهْفَـةِ الصَّحْـ ... ـرَاءِ.. نَحْـوَ انتـفـاضَـةٍ هَوْجَـاءِ
وَيُحِيْـلُ الأَرْضَ الجَـدِيْبَـةَ حَـقْـلاً.. ... مِنْ طُيُوفٍ.. وَمَـوْجَـةً مِنْ رَخَـاءِ

---

(١) يستحثّ: يحضّ على الأمر.



وَيَشُـدُّ القُـوَى.. فَـيَلْتَهِـبُ الدَّرْ ب.. وَتَضْـرَى قَـوَافِلُ البُـؤَسَـاءِ
خُطْوَةً خُطْوَةً.. وَأَنْتَ تَقُودُ الرَّكْبَ لِلـنُّورِ.. لِلأَمَـانِيْ الوِضَـاءِ
وَعَلَى مَفْرَقِ الطَّرِيقِ.. عَوَى البَغْـ يُ.. بِأَعْـرَاقِ أُمَّـةٍ عَـمْـيَـاءِ
يَسْتَثِـيرُ الظَّلامَ والحِقْـدَ.. والـ شَّـرَّ.. لِيَطْوِيْ بِهَـا لَهِـيْبَ النِّدَاءِ
غَـيْـرَ.. أَنَّ النِّدَاءَ.. مـا زال رَعْـدًا.. ومـا زَالَ صَـارِخـاً بِالدُّعَاءِ
«أَيُّهـا الجَاهِلونَ.. عُـودوا إِلى النُّو رِ.. فَـهَــذِي طَلائِعُ الأَضْـواءِ
حَـرِّروا رَأْيَكُـمْ.. يُحَـرِّرْكُـمُ الإِسْـ لامُ.. مِنْ جَـاهِلِيَّـةٍ جَـوْفَـاءِ»

* * *

يا نَبِيَّ الأَحْـرَارِ.. وانْتَـحَرَ الصَّمْـ تُ.. وَمَـرَّتْ مَـوَاكِبُ الإِغْـواءِ
وَتَمَطَّى الظَّلامُ.. مِنْ رَقْـدَةِ الحُلْـ ـمِ.. وَجُـنَّـتْ نَـوَازِعُ الآبَـاءِ
فَـإِذا أَنْتَ فـي شِـفَـاهِ (قُـرَيْشٍ) (خَطَرٌ) يُنْذِرُ الوَرَى بِـ (الوَبَاءِ)
سَـاحِـرٌ يُدْهِشُ العـقـولَ بنجـوا هُ ويَغْـوِيْ حُـثَـالَـةَ البُـسَطَاءِ
وَرِفَـاقُ الطَّرِيقِ حَـوْلَكَو افـتـرَّ ت عَنِ القـومِ بَسْـمَـةُ اسـتـهـزاءِ
إِنَّهم مِنْ عـبـيـدِنا.. أَفَـيَـمْـشُو نَ غـداً.. في مَـوَاكِبِ الكُبَـرَاءِ
مَنْ تُرى عَـرَّفَ العـبـيـدَ قَـضَـايا ها وروَّى حَـيَـاتَهَـا بِالرَّجَـاءِ

* * *

وَسَجَـا الليلُ.. فَـانْتَـبَهْتَ.. وعـينا كَ.. التِـفَـاتٌ إِلى جَـلالِ السَّـمَاءِ
حَـامِـلاً في يديكَ قُـرآنَكَ البِكْـ ـرَ.. وفي رُوحِكَ انْتِـفَـاضُ الحِدَاءِ

ثُمَّ مَـرَّ النسـيمُ.. وانسـابتِ الآ ياتُ. في صَوْتِكَ الحبيبِ النَّائي
أيُّهـا النَّاسُ كلُّكُمْ.. لو عَـقَلْتُمْ.. مَـبْـدأ الخَلْقِ مِنْ تُرابٍ ومَـاءِ
إنَّ هذي الفُـروقَ أضْـعَفُ مِنْ أنْ تَتَـجَنَّى على طَرِيقِ السَّـوَاءِ[1]
فَاخْنُقوها.. وَنَضِّروا الرُّوحَ بالتَّقْـ ـوى فـإنَّ الصَّبَـاحَ لِلأتـقـيـاءِ

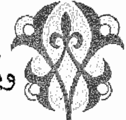
* * *

وَتَهَادَيْتَ في الضُّحَى.. وأبو جَهْـ ـلٍ.. يَعِـدُّ السِّيَـاطَ لِلضُّعَـفـاءِ
حَامِلاً في يَدَيْهِ.. أغلالَ ماضيـ ـهِ وأثْقـالَ فَـتْـرَةٍ سَـوْدَاءِ
يَحْسَبُ السَّوْطَ قُوَّةً.. تَصْرَعُ الفَجْـ ـرَ.. وتُودِيْ بـالدَّعـوةِ السَّمْحَـاءِ
ليسَ يدريْ أنَّ العَـقـيـدةَ «بركا نٌ» يُثيـرُ الحيـاةَ.. في الأعْضَاءِ
ونذيرٌ.. بثـورةٍ تُرْهِقُ الطُّغْـ ـيانَ - إنْ جُنَّ - في يدِ الأقْـوياءِ
كـيفَ يَهْدَا؟ وهذهِ الأمَّـةُ السَّوْ دَاءُ تَضْـرَى في ثورةِ الكِبْـرِياءِ
وعلى ثَغْـرِهَا.. ابْتِـسـامَـةُ هُزءٍ بلهـيـبِ الجِـرَاحِ والبَـأْسَـاءِ
ثمَّ مـاذا.. ويـاسِـرٌ يتـحـدَّاهُ بِوَحْيِ الهُـدى وَلَحْنِ السَّمَـاءِ
ومَضَتْ لحظةٌ.. وكـانَ سَنَا الفَـجْـ ـرِ يَشُقُّ الطَّريقَ لِلشُّـهَـداءِ
وإذا (بالنبيِّ) يَفْـتَـتِـحُ النَّصْـ ـرَ.. بِزَهْوِ الشَّـهَـادةِ الحَـمْـراءِ

* * *

واسْـتَـفـاقَ التَّاريخُ.. للثَّورةِ الكُبْـ ـرى بروحٍ جَـيَّـاشَـةِ الأصْـداءِ
ومضى يَرْقُبُ الخُطَى في انطلاقِ الـرَّكْبِ.. نَحْوَ الحقيقةِ البَيْضَاءِ

(١) سَوَاء السبيل: ما استقام منه.



وَيَحِسُّ اللَّحْنَ الذي يَحْضُنُ النَّصْـ ـرَ.. ويحنو على رَبيعِ الدِّمَاءِ
حَـذِراً.. يَلْمَسُ الرِّمَـالَ التي مـ ـرَّتْ عليهـا مَـوَاكِبُ الأنْبيـاءِ
لِيَـرَى كَـيْفَ تُبْـدِعُ الخَطْوَةُ الأو لى.. جَمَالَ الحياةِ في البَيْدَاءِ
كيفَ يَطْوي الرَّبيعُ.. في فَجْرِهِ البِكْـ ـرِ.. جُنُونَ الدُّجَى وَعَسْفَ الشِّتَاءِ
وَيَرُشُّ الثَّرَى.. بِأحْلامِهِ البيـ ـضِ.. فتزهو بِخفْقَةِ الأشْذاءِ
وَهُنَا.. وانْجَلى الضَّبَابُ عَنِ الأفْـ ـقِ.. وثَارَ الشُّعَاعُ في الأرجاءِ
.. راحَ يُزْجِي الحَديثَ خِلْواً من الزَّيْفِ بَعيداً عَنْ نَزْعَةِ الإغْرَاءِ
وَيَخُطُّ الخُلُودَ.. في سِفْرِهِ[1] الخَا لِدِ.. رَمْزاً للدَّعْوةِ الغَرَّاءِ
مُسْتَمِداً مِنْ وَحْيِ رُوحِكَ نَجْوَا هُ.. وعَزمِ الصَّحَابَةِ الأصْفِياءِ

* * *

يا نَبِيَّ الأحْرَارِ. مَرَّتْ نَجَاوا كَ.. مَعَ الأمْسِ في دُروبِ الضِّياءِ
تَبْعَثُ اليقظةَ الحبيسةَ مِنْ أعـ ـماقِنا.. مِنْ مَخَالبِ الظَّلْماءِ
وَتَصُبُّ الحنانَ في الأعْيُنِ الحَيْـ ـرَى.. وتَحْنُو على صَريعِ الشَّقَاءِ
وتَضُمُّ الحياةَ.. في وَحْدَةِ الحُبِّ.. لِتطويَ نَوازِعَ البَغْضَاءِ
وتثيرُ الدُّنيا.. لِتَقْتَسِمَ الحِقْـ ـدَ.. فَتَجْني الثِّمارَ لِلأشْقياءِ
حَيْثُ لا مُتْرَفٌ.. يعيشُ على القِمةِ في مَشْرِقِ الضُّحى اللألاءِ
وضعيفٌ يعيشُ في السَّفْحِ عَبْداً لِميولِ الطُّغاةِ والأغنياءِ
وإذا ما ارتمى على وَهْدَةِ الجو عِ.. وناءَتْ حَياتُهُ بالعَناءِ[2]

(١) السِّفْر: ج. أسفار، الكتاب الكبير.
(٢) الوَهْدَة: جمعها وهاد ووَهْد، الأرض المنخفضة.

لم يَجِدْ غيرَ كِسْرةٍ وإناءٍ.. مَـلأَتْهُ الأقْذارُ بالأقْذاءِ
كلّ ما ترتجيهِ.. أنْ تَتَلاقى في قلوبِ الوَرَى مَجاريْ الهَنَاءِ
ويثيرُ الحياةَ في كُلِّ عِرْقٍ مِنْ عُرُوقِ الصَّحْراءِ نَبْعَ سَنَاءِ
في اشْتِراكيَّةٍ.. تُقَرِّرُ حَقَّ الـ ـفَرْدِ.. في نَزْعَةِ الغِنَى والثَّرَاءِ
وتَرَى.. أنَّ في الثَّرَاءِ نَصِيباً مِنْ صَفَايا الأَرْبَاحِ لِلفُقَرَاءِ
وحقوقاً.. لو أنْصَفَ النَّاسُ لاهتَزَّ تْ بِآفَاقِنا طُيُوفُ الرَّخَاءِ
ولَعِشْنَا مَعاً على الشَّاطِئِ الحُرِّ.. نَشَاوى.. في مَوْكِبِ السُّعَدَاءِ

* * *

يا نَبِيَّ الأحْرارِ.. هَذي سَرَايَا كَ.. أسَارَى في قَبْضَةِ الأعْدَاءِ
خَدَعُوها باسمِ (الحِمَايَةِ) وامتدَّ تْ يَدٌ بالسلاسلِ الصَّمَّاءِ
تُرْهِقُ الشَّعْبَ بالقيود وتَهْوي بسِيَاطِ اللَّظَى عَلَى الأَبْرِياءِ
ثُمَّ عَادَتْ.. باسْمِ التَّحَرُّرِ.. تَدْعُو نا.. لأَحْضَانِهَا.. وَرَاءَ غِطَاءِ
وَرَبِحْنَا اسْتِقْلالنا.. وَمَلأنا الأُفْقَ بالشِّعْرِ والهوى والغِنَاءِ
وَتَوارى الدَّخِيلُ خَلْفَ سِتَارٍ مِنْ نِفَاقِ الحُكَّامِ والزُّعَمَاءِ...
وَرَآنا.. وَنَحْنُ نَرْشُفُ مِنْ وَحْـ ـيِكَ.. كَأْسَ الحُرِّيَّةِ الحَمْرَاءِ
وبِأَصْدَائِنا.. يُحَمْحِمُ تاريـ ـخٌ.. يَمُدُّ الصَّدَى بِأَلْفِ نِدَاءِ
وَيُغَذِّيْ الأرْوَاحَ ـ مِنْ عَبَقِ الثَّوْ رَةِ في روحِهِ ـ بِخَيْرِ غِذَاءِ
فَمَضَى يَحْصُدُ العقيدةَ مِنْ أعْـ ـماقِنَا البيضِ ـ باليَدِ السَّوْدَاءِ

وَيُمِيتُ الفِكْرَ.. الذي صَنَعَ التَّا ريخَ.. واقْتَادَ ثَوْرَةَ العَلْيَاءِ

وَتَحَدَّى الأهوال.. فَاقْتَحَمَ القِمَّةَ.. حُرّاً على نَشِيدِ الفِداءِ

وَجَرَى يَهْدِمُ العبوديَّةَ العَمْ يَاءَ فِينا.. بِمِعْوَلٍ بَنَّاءِ

وَيُرِينَا أَنَّ الحَيَاةَ إذا لَمْ.. تَتْبعِ الهَدْمَ في سَبيلِ البناءِ

سَوْفَ تَهْتَزُّ في الطَّريقِ وَتَنْهَا رُ.. أَمَامَ الرِّياحِ والأنْواءِ

* * *

هكذا يَرْتَجِي الدَّخِيلُ.. حَيَاةً في ظلامٍ ويقظةً في غَبَاءِ

وشعوباً.. لا تَرْشُفُ الكَأْسَ إنْ لَمْ تَكُ في الكَأْسِ خَمْرَةَ الحُلَفاءِ

وَحدوداً في أمَّةٍ لَمْ يُفَرِّقْـ ـهَا اخْتِلافُ الأشْكَالِ والأسْمَاءِ

ودروساً تُمْلَى.. فَتَحْسَبُ أَنَّا.. لَمْ نُزَوَّدْ مِنْ أَمْسِنَا بِعَطَاءِ

وتَشَلُّ التَّاريخ.. في خَطوهِ الحُـ ـرِّ.. فَيَهْوِي مُوَزَّعَ الأشْلاءِ

* * *

هكذا يرتجيْ.. ومَا زالَ يَقْتَا دُ فُلُولَ الأنْصَارِ والأصْدِقَاءِ

.. غيرَ أنَّا هُنا.. وَقَدْ أَلْهَبَ الفَجْـ ـرُ أنَاشِيْدَنَا.. بِوَحْيٍ مُضَاءِ

وَرَأَيْنَاكَ.. في الذُّرَى.. تَصْرَعُ الظُّلْمَ.. بِسَوْطِ العَقِيدَةِ الشَّمَّاءِ

وَلَمَسْنَاكَ.. وَالفُتوحَاتُ في كَفَّيْكَ.. تَأْبَى طَبِيعَةَ الخُيَلاءِ

فِيْ سَمَاحٍ.. لا يبتغي النَّصْرَ إلاَّ لِتُبِيْدَ الحياةُ.. رَكْبَ الفَنَاءِ

.. سَوْفَ نَجْري على خُطَاكَ بِرُوحٍ تَتَلَظَّى على نَشِيدِ الإبَاءِ

ونَعيدُ التّاريخَ.. يَسْتَصْرِخُ الأنـ ـصَارَ في رَوْعَةِ الضّحى الوضّاءِ

* * *

أنْتَ تاريخُنَا وأنْتَ هُدَانا.. فَتَعَهّدْ جِراحَنَا.. بِالشّفَاءِ
واسْكُبِ الوحيَ في دِمَانا.. فَقَدْ حَنّتْ أناشِيْدُنَا لِوَحْيِ السّماءِ
وَتَرَفّقْ بِنا.. وَجَدّدْ خُطَانا لِحَيَاةٍ عُلْوِيّةِ الإيْحاءِ
لِتَرَانا غَداً.. ونحنُ نَقُودَ الـ ـرّكْبَ.. حُرّاً.. في ساحةِ الهَيْجَاءِ
وأنَا حَسْبِيَ العبيرُ مِنَ الزّهْـ ـرِ.. وَمِنْ رُوحِكَ التِفَاتُ الرِّضَاءِ*

بنت جبيل بتاريخ ٢٢/١٠/١٩٥٥م

* نشرت في العدد الثالث من مجلة العرفان، في المجلد الثالث والأربعين: ك١ ١٩٥٥م ج١ ـ/ ١٣٧٥هـ.

الفهرس







هذا الكتاب

هذا الكتاب هو تبيانٌ لأهداف النبوّة التي تشمل الحياة كلّها وتستهدف تغيير معالمها باتجاه النهج القويم إلى درجة يشعر معها الإنسان بالنور المتدفّق من كلّ مكان يتحدّى كلّ غياهب الظلمات، وتعبير آخر ليعيش روحيّة الإسلام بأنواره من خلال تشريعه العلميّ الذي يركّز خطوات السلام على أرض طاهرة صلبة.